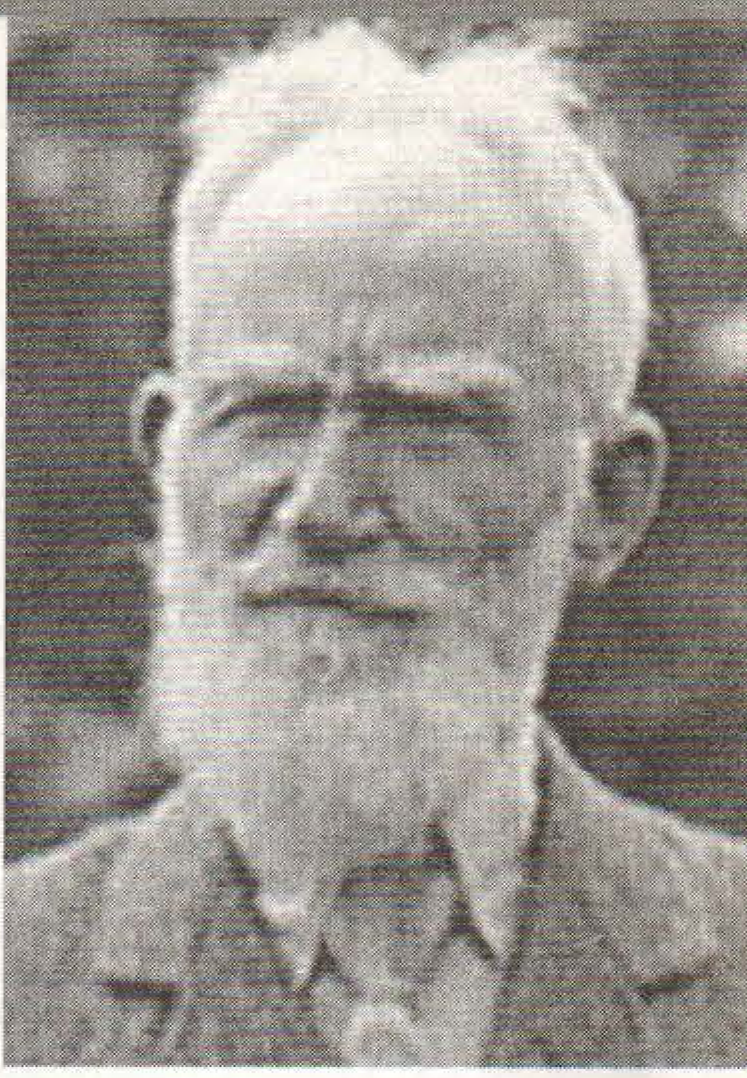

في حياتي

أساتذة و زملاء

د. محمد مندور

كتاب ينشر لأول مرة

جمع وتقديم

د. طارق مندور

كتاب الثقافة الجديدة (25)

هدية مجانية

توزع مع مجلة الثقافة الجديدة

العدد 207 أكتوبر 2007

د. محمد مندور
في حياتي: أساتذة وزملاء

د. محمد مندور
فى حياتى:
أساتذة وزملاء

جمع وتقديم

د. طارق مندور

وزارة الثقافة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

كتاب
الثقافة الجديدة

تصدره
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد نوار

أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن

الإشراف العام
محمد أبو المجد

الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• د. محمد مندور
فى حياتى: أساتذة وزملاء
• جمع وتقديم: د. طارق مندور

الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2007 م
184 ص. 5ر13 × 5ر19 سم
• المراجعة اللغوية: عادل سميح
رقم الإيداع: ٢٢٢٢٧ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولى: 7-496-437-997
• المراسلات:
باسم / رئيس التحرير
على العنوان التالى: شارع التحرير - باب اللوق - عمار استراند
القاهرة
ت: 27948236

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

كتاب الثقافة الجديدة (24)

كتاب يوزع مجانًا مع مجلة الثقافة الجديدة
(عدد أكتوبر ٢٠٠٧)

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
سامى خشبة

سكرتيرا التحرير
فؤاد مرسى
محمد أبو المجد

الإشراف الفنى
د. خالد سرور

الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف في المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

د. محمد مندور
في حياتي:
أساتذة وزملاء

تقديـم

فرحت عندما قال لى الأستاذ ممتاز: ما شاء الله إنت بقيت أطول منى يا طارق!!، وذلك عند عودته من غيبة بسبب مرضه بشهر أو يزيد، والأستاذ ممتاز رجل قصير القامة للغاية وكان كثيراً ما يحضر إلى أبى لكى يقرأ له النصوص المسرحية، وكم كان رجلاً بشوشاً وخفيف الظل. وكانت قراءته للمسرحيات شديدة الجاذبية لكونه يمثل بصوته جميع شخصيات المسرحية وينفعل بها. وكنت وأنا بعد طفل صغير أفرح وأهلل لقدوم الأستاذ ممتاز. ولم أر الأستاذ ممتاز بعد أن صرت أطول منه قامة وأنا بعد صغير.. رحم الله الأستاذ ممتاز. وكم حزنت وحزن أبى عليه وقال محدثاً نفسه «وكيف أعيش إذا لو مات أبى وأمى».

ويشاء القدر أن يرحل أبوه قبله بعام ويوم واحد وتعيش أمه بعده لسنوات طوال.

ويحضرنى دائما أن أبى كان يقول لأصدقائه إنه إذا ما تأزمت حياته وكان فى حيرة من أمره لا يذهب إلا إلى سقراط فيسأل الصديق ومن هو؟ يجيب أبى قائلا: إن أباه وإن كان لايقرأ ولا يكتب ولكنه يملك من الحكمة مثلما كان يملك سقراط أو يزيد ، ورأيت أن أضع بين يدى القارئ بعض ما كتب د.مندور عن أبيه فى مقالى : «اعترافات مؤمن» و«أربعة أيام بين الريف والبدو».

وأحب أن أذكـر أن الدكـتـور مـندور ومـن تأثر بـهم فـى صـبـاه ويفاعته من نماذج إنسانية ،إيجابية كانت أم سلبية ، أسـهمت فى تكوينه النفسى وتحديد ثوابته.

منذ أن خرج من القرية لمدرسته الألفى الابتدائية، بمركز منيا القمح بمحافظة الشرقية التى تبعد ستة كيلومترات عن قريته، وكان يعانى فى هذه المدرسة من عنف الناظر الذى كان يضرب التلاميذ ضرباً فظيعاً، ويحابى أبناء عائلة الباشا.

يحكى مندور عن «البيطار» أحد شهداء ثورة ١٩ الذى كان يقود المظاهرات فى منيا القمح إلى أن قتله الجنود الإنجليز مع ١٥٠ شهيداً آخرين أمام عينيه فى طفولته . وكان هذا يوم أن بدأ تكون وجدانه الوطنى. ويحكى عن مدى حنقه وغضبه عندما أرسل محمد عثمان باشا أباظة رسوله لجعل فلاحى قريته يتراجعون عن تحطيم سكة حديد الحكومة التى تنقل الجيش الإنجليزى أثناء الثورة لردعها.

هذا عن بداية تكون حسه الوطنى والسياسى أما عن بداية تكونه الأدبى فقد كان فى مدرسة طنطا الثانوية حيث تفتحت ملكاته وأحب الأدب والشعر العربيين على يدى أستاذيه السباعى وهاشم. كما قال فى حديثه مع الأستاذ فؤاد دوارة، وكذلك حديثه عن أستاذه الدكتور طه حسين أول من وجهه إلى دراسة الآداب بعد أن كان متجها إلى دراسة الحقوق فقط. ثم أعرض مقالاته وأحاديثه عن أساتذته المباشرين: أحمد لطفى السيد وأحمد أمين وكذلك مقالاته عمن تأثر بشخصياتهم وأفكارهم من خلال كتاباتهم خاصة فى بدايات تكوينه كابن خلدون والمنفلوطى وروسو ومحمد حسين هيكل وحسين عفيف

المحامى، ثم تأثره أكبر التأثر ببركليس وديموستين وما أنتجته خطبهما من تأثير فى جماهير أثينا القديمة، ثم مروراً بأفكار تولوستوى وبرتراند راسل وبرنرد شو وأتيلا جوزيف. ثم نقدم مقالات لمندور فى رثاء معاصريه الذين قضوا قبله كسلامة موسى ودرينى خشبة ومحمد صقر خفاجة ورسلان البمبى ومحمد كامل حسين، وبعض المقالات عن شخصيات وطنية كالشهيد جواد حسنى والأستاذ إبراهيم فرج، وشخصيات إنسانية كواشنطن الزنجى وأدبية مثل مى زيادة وتوفيق الحكيم وإبراهيم المازنى. ومن تلامذته كنعمان عاشور.

وفى النهاية نتركه يتحدث عن هؤلاء. وقد تأثر وأثر ومازال يؤثر لأن الصدق يعيش أبداً. وهنا أستعير تعبير والدى فى مخطوط لم ينشر بعد بعنوان «قد أصبح البصر حديداً» «أرى الغاية من الحياة أن نكمل «نحيا لنكمل» وأنه علينا أن نخلق لنخلد إذ أنه ما من سبيل إلى الفرار من الموت وإنما باستطاعتنا أن نغالب الفناء بأن نخلق شيئا يخلفنا .. فلنعمل عملاً يذكر ولنخلق قيماً جديدة روحية كانت أو مادية فعندئذ يهزم الخلق الفناء».

د. طارق مندور

اعترافات مؤمن

لا يستطيع مثلى أن يتنكر لجلال الفكر البشرى، وهو منبع شقائنا وعزائنا على السواء، ولكنى أحسب أن هناك أنواعاً من ذلك الفكر، فالمرء قد يفكر بعقله وقد يفكر بخياله وقد يفكر بقلبه . والتفكير بالعقل وحده هو ما ينفر منه طبعى وذلك لأنه ما لم يحلق الفكر إلى عالم الصور الجميلة بخيال قوى أو يرسب إلى أعماق القلب بحرارة حية لم تهتز له نفس ولا اطمأن إيمان، وإن كنت لسوء الحظ مضطراً كغيرى من البشر أن أكسر فى بعض الأحايين جناح الخيال وأن أطفئ حرارة القلب حين لا يكون بد من أن نتناول الأمور ببرودة العقل اللصيق بالأرض.

منذ أزمة الإيمان التى صادفتنى فى اليفاعة كما أحسبها صادفت غيرى وأنا دائم التفكير فى حقيقة ذلك الإيمان .ولقد مرت بى عقب تلك الأزمة مباشرة أعوام كنت أناقش فيها كل من ألقى عن المشاكل التى يثيرها العقل عن وجود الله وكيف كان ذلك الوجود وعن علاقته بهذا العالم وما فيه من خير وشر. ولا شك أننى كنت أبحث عندئذ على غير وعى منى عن يقين أطمئن إليه، ولكننى أعترف فى بساطة أننى ما قرأت ولا سمعت ما يوجب ذلك اليقين ، حتى أصابنى ما يشبه الملل فلم أعد أطيق الحديث فى هذه الأمور، وأصبحت كلما سألنى عنها سائل أو تحدث بها متحدث رميته

بالتفاهة وذلك بوعى منى أو غير وعى، ولكنها تفاهة لا يمكن أن أعفيه منها مهما بلغ سؤاله أو حديثه من عمق أو أصالة . ولقد حاولت غير مرة أن أتبين السر فى موقفى هذا فوجدته ، أو خيل إلىّ أنى قد وجدته، فى أمرين: أولهما أن العقل نفسه نشاطه الأكبر موجه إلى تقويض ذاته، فهو لا يزال يبحث عن حدود قدرته ويتناول بالشك ما يصل إليه من آراء ونظريات يعاود فيها البحث فيقوضها حتى أصبح نقده لنفسه خليقاً بأن يهدم ثقتى فيه. وثانيهما أننى كنت أحس دائما فى غموض أن تطاول العقل إلى ما لا يستطيعه دليل ضعف فيه لا قوة ، ولهذا كم كانت فرحتى يوم سمعت عميداً لكلية الطب بباريس يقول: «إن من أمارات الضعف العقلى أن نبحث بعقولنا عما لا نستطيع أن ننفذ إليه ، والعقل القوى هو الذى يعرف حدود قدرته». لقد خيل إلى عندئذ أن هذه الألفاظ قد أضاءت مظلما فى نفسى، فرأيت بوضوح ما كنت أحسه غامضا ومنذ ذلك الحين آمنت بتفاهة من يناقشنى فى الإيمان بعقله فهذا رجل ضعيف العقل مبدد لنشاطه هدراً .

أنا إذن لا أحب الحديث عن الإيمان ولا أومن بالدعوة إليه، ولكننى مع ذلك مؤمن إيماناً راسخاً ، وليست لى فى الحياة قوة غير هذا الإيمان، فقد تهب أعاصيرها ومن الممكن أن تتنكر لى يوماً عناصرها ذاتها، ولكن ذلك لا أظنه ينال منى شيئاً، وذلك لا اعتزازا منى بعروض حياة أو مواهب نفس، ولكن لأننى مؤمن بإله عادل اطمأنت إليه نفسى بحيث لا أذكر أننى قد اتجهت إليه يوماً فلم أجد تأييده، وعندما أدعوه يسكت فى نفسى طنين الفكر فلا أحس غير

الصمت الساكن ولا أفكر حتى فى وسائل القوة التى أبقيها، وإنما أساق بعد ذلك إلى تلك الوسائل كالآلة المسيرة وهى تعرض لخاطرى فى لمحات خاطفة فأسير إليها دون أن أتبين حتى مواقع أقدامى، وإنما أكتفى بما أستشعر من ثقة من أننى ما دمت قد تركت السكون إلى الحركة فإننى فى سواء السبيل. ومهما تكن بعد ذلك من صعوبات ، فلا يمكن أن يساورنى شك فى أنها ستذلل ولو فى اللحظة الأخيرة وذلك هو الإيمان الهادى.

من أين لى بهذا الإيمان وقد لقيت ضروباً من الناس وقرأت ألوانا من الكتب، ودرست أنواعاً من اللغات والثقافات، بل وخبرت الحياة هزلها وجدها فى كافة الأجواء وتحت مختلف السماوات. أستطيع اليوم بعد أن نضجت ملكاتى أن أقول إننى لم يقنعنى أحد به، ولا اكتشفته فى بطون كتب، ولا تلقيته من أفواه بشر،بل ولا غرسته بمواصلة القيام بشعائرهم كما نغرس فى النفس مختلف العادات بدوام مزاولتها، وإنما هو إحساس قديم مكنت له فى نفسى حوادث صغيرة كانت بينى وبين أبى.

ولا أرى ضيراً من أن أقص طرفاً منها على القراء فتلك تجارب بشرية قد تكون أجدى فى إلقاء بعض الضوء على مشكلة خطيرة هى مشكلة الإيمان من كثير من موسوعات علوم التوحيد والكلام ، ولها على الأقل ميزة الصدق النابض بالحياة، وهى صادرة عن نفس فيها من القوة ما لا يصرفها عن أن ترد كبار الأمور إلى صغائر الأشياء عندما تؤمن أن تلك الحوادث الصغيرة هى الأسباب الحقيقية التى تتضاءل إلى جوارها كبرياء العقل ومغالطات الإحساس.

عندما أخذت أدرك علمت أن والدى قد بنى بأحد حقوله «خلوة» لا منفذ لها غير الباب وأنه قد هجر زوجته وأبناءه أربعين يوما ليقيم فى تلك «الخلوة» يعبد الله فيها آناء الليل وأطراف النهار لا يرى أحدا ولا يراه أحد وإنما يحمل له الطعام من خصاص الباب. ولقد أثار هذا الخبر خيالى فكنت ألاحق أبى بالسؤال عنه ولكنه رجل كتوم لسره فلم أحظ منه بجواب غير أن دافعه كان عبادة الله وكفى . ثم علمت أن الشباب كان قد ساقه فى مهاويه فلم يجد عصمة خيراً من معاهدة أحد علماء الدين على التوبة إلى الله. وكان هذا العالم نقشبندى المذهب وكان رجلا خيراً، فلم يعد تأثيره على والدى حد توجيهه نحو تجنب الإثم ، وعبادة الله، والإحسان إلى الناس، وقراءة كتب الدين ولكم من مرة حاولت أن أعرف شيئاً عن هذه الطريقة فكان أبى يرفض الإدلاء بشىء ، مكتفياً بأن يخبرنى بأن تلك أسرار لا يجوز أن تباح، ومن غريب الأمر أننى علمت منذ ثلاثة أشهر فقط أن لفظة نقشبندى معناها النقش على القلب. واستنتجت من ذلك أن سر هذه العبادة هو أن يستشعر الفرد دائما أن اسم الله منقوش على قلبه. ولقد لاقيت والدى منذ أيام فأخبرته فرحا مسروراً أننى قد عرفت معنى اللفظة دون بحث عنه، ولكن بتوفيق من الله ساقه إلى سوقاً. فدهش الرجل وقال: «هو هذا وهو سر العبادة» وإذن فقد خلا أبى لعبادة الله أربعين يوماً، وتحرك خيالى لتلك الخلوة ،ولكننى لم يكشف لى عن سرها، واقتنعت بأنه لا يجوز لى أن أتطاول إلى معرفة هذا السر، ولقد آمن أبى سنين طويلة بأنه قد نقش اسم الله على قلبه واتخذ من هذا النقش سبيلاً إلى حمده منعماً وسالباً ،

وسمعت بذلك، ولكنى أيضا لم أكتشف سر هذا الحمد، وآمنت أنه لا يجوز لى أن أتطاول إلى كشفه، وهكذا تهيأت نفسى إلى الإيمان بالمجهول والاطمئنان إليه والثقة به وأكبر ظنى أن الخير ما أراد الله. فلو أن أبى بصرنى بما أردت لخلت نفسى من الأسرار ولأصابها العقم. واتفق أن أبى لم يستطع أن يتم حجه فى بعض المرات إذ أصيب بنقرس شديد فى السويس وأنا عندئذ فى السادسة من عمرى، وألزمه المرض الفراش عامين كاملين قاسى فيهما من الألم ألواناً حتى لا أزال حتى اليوم كلما ذكرت أنينه اقشعر جلدى ، ولست أدرى لأى سبب ارتبط هذا المرض فى نفسى بالإيمان حتى لأحسبه ثمن ما أفاض الله على والدى منه، ولا زلت منذ ذلك أومن بأنه لا بد أن يبتلى الله المؤمن ليختبر إيمانه وأن المرء لا بد ناج ما سلم الإيمان فى قلبه.

وعندما اختارتنى الجامعة لبعثها حدث حادثان صغيران كان لهما فى نفسى أبلغ الأثر: أولهما أننى قبل سفرى رتبت كتبى فى صندوق كبير وبغير وعى منى وضعت «المصحف» على قمة الكتب، ورأى والدى ذلك عرضا فسر سروراً لم أقصد إليه، ولربما جاء بتوفيق من الله وحدث إخوتى عما رأى قائلا «إن إخاكم فلان سيكون الله دائما معه وسيوفق فى كل ما يعمل» فسألوه «ولم ذلك »فأجاب «لأننى لاحظت أنه وضع كتاب الله فوق كل كتاب» ثم إننى فى يوم السفر فوجئت بهدية من والدى أوصانى أن أحتفظ بها مدة غيبتى وأن أعود بها إليه ، وكانت تلك الهدية عبارة عن منديل للشيخ العالم النقشبندى الذى عاهده والدى على الهدى ولقد أخذت المنديل

واحتفظت به تسعة الأعوام التى مكثتها بأوروبا وعدت وهو لا يزال إلى اليوم بين ملابسى. ولا أستطيع أن أزعم أننى قد علقت به إيمانا خاصا أو قوة معينة بل ولا فكرت فى ذلك، ولكنه نوع من الاطمئنان السلبى المريح . وقد اختلطت فى نفسى قيمة الهدية بمحبتى لمهديها وإيمانى به ، وكان لهذين الحادثين فضل دائم فى ردى إلى الإيمان كلما تجهمت لى الحياة.

ولقد اتخذ الإيمان فى نفسى وجهة الإحسان إلى الغير، حتى لأحسب أننى عاجز عجزا أصيلا عن بغض أحد، فقد يقسو قلمى وقد يلذع لسانى، ولكننى ما عدت إلى نفسى إلا أحسست بفيض من التسامح لا أستطيع دفعه. وأكبر ظنى أن هذا الاتجاه كان أيضا لإشعاع من والدى وليسمح لى القراء أن أقص حادثا عائليا كان له فى هذا الاتجاه أكبر الأثر.

كان لوالدى تسعة إخوة وكان يحبهم جميعا حبا قلبيا صادقا حتى لقد كان يذهلنى عندما يموت أحدهم أن أراه وهو الشيخ الكتوم لسره يبكى بدمع حار، وكان أصغر إخوته رجلا كريما متلافا، وكان والدى يهز فى دخيلة نفسه لكرمه وإن أحزنه إتلافه لماله ، وقد هدد هذا الإتلاف ثروته حتى أوشكت أن تضيع، وكان والدى يحرص على أن يستنقذ من تلك الثروة ما يستطيع، وحدث ذات يوم أن ألح الدائنون بالمطالبة وكان الوالد يستطيع عندئذ أن يسكتهم ببعض ماله الخاص ولقد فعل، وكنت عندئذ فى السابعة عشرة من عمرى وكانت والدتى ككافة الأمهات تحرص على أن يستبقى الوالد أمواله لأبنائه، وكان أخى الأكبر يناصرها فى الرأى فانتحى بى والدى فى الليل

ناحية وأسر لى بنيته طالبا إلى أن أخفى الأمر عن والدتى وأخى. ولقد رأيت فى هذه الحركة ثقة بى برغم حداثة سنى أثرت فى نفسى أبلغ الأثر، فتحمست منذ ذلك اليوم لعمل الخير وآمنت أنه جزء من الإيمان حتى استقر بى الرأى إلى أن عون الملهوف وإسداء المعروف إلى الناس لابد أن يخلفه الله بالخير على صاحبه ، ولا زلت حتى اليوم أعتقد أن بركة الله قد حلت بمال والدى منذ ذلك الحين. وذلك لأنه مال لم يطهره بالزكاة فحسب، بل زكاه بالإحسان.

هذه هى عناصر الإيمان فى نفسى، اطمئنان إلى المجهول، وعدم تطاول بالعقل إلا ما لا يستطيعه ، وربط للأخلاق بالإيمان، وتسامح مع الناس، وعمل للمعروف حيث نستطيعه. وأما منابع ذلك الإيمان فهى كما ترى لم تكن محاجة عقلية ولا إثارة عاطفية، ولكنها حوادث صغيرة كانت أبلغ فى تمرسه بالنفس من كبار الموسوعات وطوال الخطب.

مجلة الرسالة– ١٩٤٥/١/٨

أساتذتى
السباعى وهاشم وطه حسين

عندما أعود إلى حياتى أقلب صفحاتها لا ألبث أن أذكر أول صفحة مشرقة فيها وكانت تلك الصفحة من حياتى كطالب داخلى بمدرسة طنطا الثانوية فى العام الدراسى ١٩٢٤- ١٩٢٥ وكنت أتعلم عندئذ اللغة العربية وآدابها فى فصل يقوم بالتدريس فيه الأستاذ السباعى بيومى الذى أصبح بعد ذلك أستاذاً للأدب العربى بدار العلوم وظل بها إلى أن أحيل إلى المعاش منذ وقت قريب مد الله فى عمره، وكان زميلى فى الدراسة الدكتور على حافظ بهنس الأستاذ الآن بكلية آداب الإسكندرية يتلقى نفس المادة فى فصل آخر على يدى الأستاذ المرحوم محمد هاشم عطيه الذى أصبح بدوره أستاذاً بدار العلوم.

ولمح الأستاذ السباعى عندى استعداداً أدبيا، ولمح مثله الأستاذ هاشم عند زميلى الدكتورعلى حافظ والظاهر أن الأستاذين الفاضلين تبادلا الرأى فيما بينهما فقررا أن يتبرع كل منهما بمحاضرة أسبوعية على أنا وزميلى بعد انتهاء الدراسة. وسهل الأمر أننى وزميلى كنا طالبين داخليين بالمدرسة، لا ينتظرنا أهل فى البيت فى موعد محدد ولا نتكلف مشقة الانتقال من البيت إلى المدرسة.

وكان الأستاذان الفاضلان يلبسان عندئذ العمامة فى أناقة جميلة

تنم عن الذوق وكانت نفسنا الغضة ترتاح إليهما وكانا بلا شك من هواة الأدب لا من محترفيه فحسب، وكانت هذه الهواية تمتد حماستها إلى قلوبنا الشابة.. واختار الأستاذان الفاضلان كتاب «الكامل» للمبرد ليقرآه معنا. وكان هذا فيما أذكر أول اتصال لى بكتب الأدب العربى القديم وموسوعاته، وكنت أجد صعوبة فى فهم النصوص القديمة ولكنى لم أكن أستمع إلى شرح الأستاذين شرحا واضحا يمكننى من الفهم حتى أحس بأننى قد وقعت على كنز بالغ النفاسة والجمال على نحو يتضاءل إلى جانبه كل ما كنا نقرأه أو نحفظه من كتب المطالعة أو المحفوظات المدرسية ، ولست أشك فى أننى قد تعلمت عن هذين الأستاذين الفاضلين محبة الأدب العربى القديم وتذوقه بعد فهمه وشرح معمياته اللغوية والنحوية، وحتى اليوم لا زلت أحب هذا الأدب العربى القديم وأفضل منه الأدب الجاهلى والأموى على أدب العباسيين ومن تلاهم لأنه كان أدب الطبع والفطرة السليمة التلقائية لا المحاكاة والتصنع.

الدكتور طه حسين:

وانتهت مرحلة التعليم الثانوى فى سنة ١٩٢٥ وافتتحت فى نفس العام جامعة القاهرة أو على الأصح تحولت من جامعة أهلية إلى جامعة حكومية تضم كليتى الآداب والحقوق فقط، وفى عقد تحويلها اشترط مجلس إدارة جامعة القاهرة الأهلية أن ينتقل الدكتور طه حسين إلى الجامعة الحكومية أستاذا لكرسى الأدب العربى فكان عندئذ الأستاذ المصرى الوحيد بكلية الآداب بينما كان عميدها وجميع أساتذتها الآخرين من الأجانب الإنجليز والفرنسيين

والبلجيكيين .وتقرر عندئذ أن يمضى جميع الطلبة المتقدمين للجامعة سنة إعدادية مشتركة يستكملون فيها الحد الأدنى من التكوين الثقافى اللازم لبدء التخصص فى إحدى الكليتين لأن التعليم الثانوى كان وأخشى أن أقول إنه لا يزال قاصرا على أن يمد الطلبة بهذا القدر الأدنى من الثقافة العامة.

ولا زلت أذكر كيف إننا فى اليوم الأول من دخولنا الجامعة بقصر الزعفران أقيم فى حديقة القصر سرادق ضخم استمعنا فيه إلى خطاب جميل ألقاه المرحوم الشيخ محمد الخضرى كبير مفتشى اللغة العربية عندئذ وكان من أهم ما علق بنفسى من خطابه دعوته لنا إلى التمسك بكبريائنا الإنسانية وقد ميز عندئذ فى وضوح بين الكبرياء والتكبر. وأغلب الظن أن هذا المعنى قد تغلغل فى روحى، وأصبح من المقومات الأساسية فى سلوكى، فأنا شديد الغيرة على كبريائى أرفض دائما أن تمس أو أن تفنى فى كبرياء غيرى. ومع ذلك فإننى أعتقد أن الدكتور طه حسين قد كان له أعظم الأثر فى توجيهى وذلك لأننى كنت عندئذ لا أزال مترددا ترددا شديدا بين وحى البيئة وهوى النفس واستعدادها فبيئتى كانت توحى إلى بأن أدرس القانون لكى أتخرج وكيلا للنائب العام يهرول أمامه الخفراء وجند البوليس بل والعمدة نفسه ،بينما كان السباعى وهاشم قد غرسا فى نفسى حب الأدب وتذوقه. وجاء طه حسين فحل هذا الصراع الكامن فى نفسى بأن أتاح لى الالتحاق بالكليتين معا بعد أن أحس باستعدادى الأدبى وعنادى الريفى.. وإننى لأحمد اليوم هذا الاستعداد وهذا العناد الريفى معا وذلك لأنه إذا كانت دراسة

الأدب والتخصص فيه قد نمت استعدادى وصقلت ذوقى، ووسعت من ثقافتى الأدبية فإن دراسة القانون قد وقتنى شر البوهيمية العقلية فى الأدب ونقده وعودتنى الدقة والوضوح والتنظيم والنظام العقلى فيما أعالج من شئون الأدب والثقافة الأدبية، وأما أننى قد أنفقت معظم حياتى فى مجال الأدب ولم أزاول العمل فى حقل القانون إلا لفترة قصيرة فهذا كله أمر هين، كان المهم هو أن أخلص لنفسى بمنهج فكرى سليم يضمن لى النجاح فيما أزاول من عمل فى أى حقل من حقول الحياة ففى رأيى أن تكوين هذا المنهج هو أهم ما يجب أن نطمع إليه ونحققه بأى نوع من أنواع الدراسة وأكبر الظن أننى ما كنت أستطيع أن أنجح فى تكوين هذا المنهج لولا مزاوجتى بين دراسة الأدب ودراسة القانون والاقتصاد. ولم يقف تأثير طه حسين فى حياتى عند هذا التوجيه الحاسم فى مستهل تكوينى الثقافى، بل ظل يلاحقنى تأثيره سنين طويلة فى اتجاهات ثلاثة بالغة الخطورة.

أما الاتجاه الأول فقد كان نحو التحرر الفكرى والثقة بالنفس. فقد كان طه حسين عندئذ من كبار الرواد فى مجال التحرر الفكرى والثقة بالنفس عندما ينتهى بنا التأمل إلى الإيمان بحقيقة علمية أو إنسانية عامة وكم كنت أشفق عليه من ثقته العميقة بنفسه وهو يحاضر مئات المستمعين فى محاضراته العامة دون أن يستعين بنص مكتوب أو تخطيط تحريرى مدون.

وعندما كان ينطلق فى محاضرته بأسلوبه الموسيقى المنغم كنت أشعر بشىء كثير من الإشفاق وأود أن استطعت مساندته على نحو

ما يطمع الطفل فى مساندة أبيه القوى القادر. وفى نهاية كل محاضرة كنت أستشعر فى نفسى معنى عميقا للثقة بها والاطمئنان إلى قدرتها على نحو يثبت معه الجنان ويستقيم اللسان فى غير توقف ولا تعثر.. وكان هذا هو أول وأهم درس أخلاقى تعلمته عن طه حسين.

وأما الدرس الثانى الذى تلقيته عن هذا الأستاذ الكبير فقد كان فى التوجيه نحو الآداب الأجنبية الكبيرة وبخاصة الأدبين اليونانى القديم والفرنسى.. وبالرغم من أن طه حسين لم يحاضرنى فى أى من الأدبين إلا أن تعلقى به ومحبتى له وانجذابى نحو شخصه قد دفعنى إلى البحث عن مؤلفاته القديمة والحديثة وقد عثرت له عندئذ على ثلاثة كتب كان لها أثر كبير فى توجيهى أو على الأصح إيقاظ رغبتى الحارة فى الاتصال بتلك الآداب الأجنبية وكانت تلك الكتب القديمة هى «قادة الفكر» الذى تحدث فيه حديثا عاما عن عدد من كبار المفكرين الغربيين القدماء والمحدثين ،والكتاب الثانى كان «صفحات من الأدب التمثيلى عند اليونان القدماء» تضمن فيه أرجح محاضراته عن هذا الأدب فى الجامعة المصرية الأهلية، والكتاب الثالث كان يتضمن عرضا وتحليلا لعدد من القصص التمثيلية الفرنسية الحديثة.. وأضيف إلى هذه الكتب الثلاثة كتابا رابعا لأرسطو ترجمة طه حسين عن «دستور أثينا» تعلمت منه معنى الديمقراطية عند روادها الأوائل .ومع كل هذا قد كان التوجيه الحاسم العميق لطه حسين فى حياتى هو رسمه لمنهج دراستى فى البعثة العلمية التى أوفدنى بها إلى باريس، حيث طالبنى بأن أدرس

هناك من جديد ليسانسا فى اللغات والآداب اليونانية واللاتينية القديمة والفرنسية مع مواصلة الاتصال بالمستشرقين الفرنسيين وحضور محاضراتهم. وكل ذلك تمهيدا لكتابة رسالة فى الأدب العربى والعودة لتدريسه بجامعاتنا وما من شك فى أنه لولا هذا التوجيه ولولا دراستى لتلك الآداب الأجنبية الكبيرة ومناهج تلك الدراسة لما استطعت أن أكتب بعد عودتى عند بدء الحرب العالمية الثانية رسالتى عن النقد العربى القديم وتاريخه وهى الرسالة التى نشرتها بعدئذ بعنوان «النقد المنهجى عند العرب» وأعتبرهامن أمهات كتبى ، بل لولا هذا التوجيه لما استطعت أن أؤدى الرسالة العامة التى أديتها فى مجال النقد العربى.

وفى اعتقادى أنه لا سبيل إلى إعادة درس أدبنا العربى قديمه وحديثه وغربلته وتقويمه وإيضاح مفاهيمه واتجاهاته ،إلا بعد تعمقنا فى دراسة أدب أو أكثر من الآداب العالمية الكبيرة وأنه لا جدوى إطلاقا من أن نرسل شبابنا إلى الجامعات الأجنبية لإعداد بحث والحصول على الدكتوراه ، وخير من ذلك ألف مرة أن نرسلهم لدراسة أحد الآداب الأجنبية مع أهلها دراسة عميقة فى صفوف الليسانس أو البكالوريوس وبعد ذلك يستطيعون كتابة بحث لنيل الدكتوراه فى أدبنا العربى القديم والحديث، وأما قبل ذلك فستأتى أبحاثهم ضحلة غير مستقرة على منهج علمى سليم ولا غائرة إلى عمق بعيد أو مستندة إلى ثقافة إنسانية واسعة.

وكان الدرس الثالث الذى تعلمته من طه حسين هو قدرته على شرح النصوص العربية القديمة وحسن تذوقها وإن كنت أخشى أن

طابعه العاطفى يؤثر فى منهجه وفى سلامة ذوقه عندما يعرض لشعر المعاصرين بالنقد مثل نقده لإبراهيم ناجى أو على محمود طه نقدا لم أستطع إقراره. وعندما كنا نستمع إليه فى قاعة الدرس وهو يشرح كتاب «طبقات الشعراء» لابن سلام الجمحى أو بعض قصائد «المفضليات» للضبى أو «جمهرة أشعار العرب» فأى قدرة على فهم وتذوق هذه الأشعار القديمة الرائعة كانت تطالعنا أثناء محاضرات هذا الأستاذ الكبير المتمكن.

وهكذا علمنى طه حسين التحرر الفكرى والثقة بالنفس كما علمنى تذوق الشعر العربى القديم وفهمه أو على الأصح أكمل تعليمى هذا الفهم والتذوق بعد أن ابتدأته على ضفاف ترعة «الجعفرية» بطنطا.

وأخيرا وجهنى طه حسين نحو الآداب الأجنبية الكبيرة وبخاصة اليونانية والفرنسية التى وضعت أقوى اللبنات فى تكوينى الفكرى والثقافى.

أستاذ الجيل.. علم الجيل
معنى الحرية والإيمان بالتطور

أحمد لطفى السيد

عندما افتتحت جامعة القاهرة الحكومية فى سنة ١٩٢٥ عين الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد مديرا لها كما عين الدكتور طه حسين أستاذا لكرسى الأدب العربى، وكان جميع الأساتذة بعد ذلك من الأجانب، وكنا نحن الطلبة فى السنة الإعدادية التى اجتمع فيها طلبة الحقوق وطلبة الآداب معا لا نعرف أية لغة أجنبية معرفة كافية لفهم محاضرات كبار الأساتذة الأجانب وبخاصة الفرنسيين والبلجيكيين الذين كانوا يحاضرون باللغة الفرنسية التى لم نكن نعرف منها غير الفتات الذى لا يغنى شيئا.

واستعانت الجامعة فى حل هذه المشكلة العويصة بوسيلتين كانت إحداهما طبع هؤلاء الأساتذة ملخصات فرنسية لمحاضراتهم وتوزيعها علينا والثانية تعيين معيدين من الأساتذة المصريين لترجمة المحاضرات إلى العربية فى النصف الأخير من كل محاضرة وبالرغم من كل ذلك ظلت هناك صعوبة فى الإفادة فائدة كاملة من هؤلاء الأساتذة الكبار ، ففكر مدير الجامعة أحمد لطفى السيد فى أن يحاضرنا هو نفسه بالعربية عن منطق أرسطو وكان سيادته عندئذ غارقا فى فلسفة أرسطو وترجمة كتابه عن الأخلاق إلى اللغة العربية.

وبالفعل فوجئنا فى أحد الأيام بدخول أحمد لطفى السيد إلى مدرج المحاضرات فحسبنا أنه قد جاء ليسمع محاضرة أحد الأساتذة الأجانب ويتبين بنفسه مدى قدرتنا أو عجزنا عن الاستفادة منها، ولكننا لم نلبث أن رأيناه يصعد بنفسه إلى منصة المحاضرة واقفا بهامته الرشيقة الفارعة كما رأينا الدكتور طه حسين يتبعه ليجلس إلى جواره على منصة المحاضرة وأعلن أحمد لطفى السيد من فوق المنصة أنه سيحاضرنا عن المنطق الشكلى لأرسطو وأنه سيبدأ محاضراته بشرح «المقولات العشر» وابتدأ فعلا يعدد هذه المقولات ولكنه لم يلبث أن توقف بعد الرابعة منها ليلتفت إلى الدكتور طه حسين الجالس إلى جوراه ويقول «هه يا طه ..وإيه المقولات الباقية أحسن أنا نسيتها» وذكره تلميذه وزميله طه حسين بما نسيه من مقولات أخرى.. وكان هذا أول درس هام تلقيته عن أحمد لطفى السيد فى أخلاق العلماء الذين يؤمنون بأن العلم ليس ما تحفظه الذاكرة وأنه لا ضير على العالم الواثق بنفسه من أن تخونه الذاكرة فالكتب تستطيع أن تحمل عن الذاكرة مثل هذا العبء الذى يرهق الذكاء.

وكان هذا أول اتصال روحى لى بأحمد لطفى السيد الذى لم تمنعه مسئولياته الضخمة فى إدارة الجامعة الفنية وتثبيت أركانها من أن يتطوع بالتدريس للطلبة الصغار باللغة العربية التى يفهمونها، ومنذ ذلك الحين تفتحت روحى لأن أغرف من أحمد لطفى السيد أقصى ما أستطيع من معرفة. ولما كانت كتاباته التوجيهية التى أثرت فى حياتنا العامة السياسية والثقافية قد كانت قبل كل شىء مقالات طوتها صحيفة «الجريدة» فقد عز على الوصول إليها إلى أن قيض

الله لنا الأستاذ إسماعيل مظهر الذى اختار عددا من تلك المقالات الرائعة ونشرها بعنوان «المختارات» فأسرعت إليها ومن تلك المختارات تعلمت درسين كبيرين

التفاؤل والإيمان باطراد التقدم

أما الدرس الأول فهو التفاؤل والإيمان الراسخ باطراد التقدم فأحمد لطفى السيد يبحث دائما عن مواضع القوة والاستبشار والثقة فى زماننا وقلما يشعرك فى كتابته أو حديثه بسخط أو مرارة أو انتقاد، هو راسخ الإيمان أن الإنسانية عامة ووطنه خاصة فى تقدم مطرد، فجيله عنده خير من الجيل السابق والجيل اللاحق خير من جيله وأوسع ثقافة وأقوى خلقا وأعظم طموحا وكنت أحسب أن هذا التفاؤل قد يزايله عندما تتقدم به السن ولكننى مع ذلك رأيت تفاؤله واستبشاره وإيمانه باطراد التقدم يزداد رسوخا فى نفسه وإشعاعا من روحه كلما تقدمت به السن- أمد الله فى عمره -حتى لتحس بالرضا والاطمئنان عندما تجلس إليه على نحو ما أحسست عندما عدت من أوروبا وانتدبت فى عام ١٩٤٠ للعمل فى لجنة ألفاظ الحضارة بالمجمع اللغوى الذى يرأسه أحمد لطفى السيد ويجتمع أحيانا كثيرة مع لجانه الفنية.

ولست أدرى هل هذا التفاؤل فطرة فى لطفى السيد أو هو توجيه نفسى تأصل فى روحه نتيجة لمطالعاته فى كتب الفلاسفة المتفائلين وبخاصة عددا من فلاسفة القرن الثامن عشر فى فرنسا وعلى رأسهم كوندورسيه الذى كتب كتابا قويا فى تدعيم رأيه عن اطراد التقدم البشرى.

وهذا رأى يعززه الدرس الثانى الذى تلقيته عن أحمد لطفى السيد وهو الإيمان بالحرية فى كل شىء فهذه الفلسفة هى أيضا فلسفة قادة الفكر الفرنسى فى القرن الثامن عشر الذين مهدوا للثورة الفرنسية ودعوا إلى الحرية وحقوق الإنسان كما أنها فلسفة حزب الأحرار فى إنجلترا وهو الحزب الذى انكمش وتضاءل وكاد يمحى من إنجلترا ذاتها لأن الزمن تخطاه وتخطى مبادئه.

الحرية فى كل شىء

وكان الدرس الثانى الذى تلقيته عن أحمد لطفى السيد هو إذن الإيمان بالحرية فى كل شىء. فقد كان أحمد لطفى السيد يدعو فى الجريدة إلى الحرية السياسية والحرية الاقتصادية والحرية الثقافية على السواء..

وقد فتنت بهذه الدعوة وأنا لا أزال هش العود قليل الخبرة بالحياة ولكننى لم ألبث أن تخلصت من هذه الفتنة عندما أحسست بأننى إذا كنت مازلت أحب الحرية السياسية وأدعو لها وأتفانى فى سبيلها هى والحرية الثقافية إلا أننى لم أعد أستطيع الموافقة على الحرية الاقتصادية التى تترك رأس المال يستغل العمال ويحتكر الخيرات ويوجه الحكومات وفق مصلحته وهواه، كما أننى لم أعد أوافق على حرية التجارة الخارجية وإلغاء القيود والضرائب الجمركية على نحو يقتل نهضتنا الصناعية الناشئة تحت وطأة الصناعات الأجنبية المتقدمة بل أصبحت أومن بوجه عام بالاقتصاد الموجه وتدخل الحكومة وإشرافها على حياتنا الاقتصادية كلها بما يحقق العدالة الاجتماعية والاقتصادية بين المواطنين .ويزيدنى إيمانا

أن هذا الاتجاه نحو الحرية المطلقة فى الاقتصاد قد تخلت عنه الشعوب التى دعا إليه مفكروها فى القرن الثامن عشر خصوصا الشعبين الفرنسى والإنجليزى، ولا أظن أن هناك اليوم شعبا واحدا فى العالم يأخذ بنظرية الحرية الاقتصادية المطلقة وإنما تختلف دول العالم اليوم حول شىء واحد هو مدى تدخل الحكومة فى الاقتصاد وتوجيهه. وفى رأيى أنه بدون تدخل الحكومة فى بلاد حديثة النمو كبلادنا ما كنا لنشهد بوادر النهضة الواسعة التى نشهدها اليوم فى ميادين حياتنا الاقتصادية المختلفة إنتاجا وتوزيعا واستهلاكا وتداولا.

بين الفكر والعمل

ثم امتدت بى السنون واشتركت فى الحياة العامة اشتراكا إيجابيا وفى تلك الأثناء تولى إسماعيل صدقى باشا الوزارة واشترك معه فيها أحمد لطفى السيد وزيرا للخارجية ،وكان الرأى العام الوطنى يطالب عندئذ بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ التى كانت تمكن لسيطرة الإنجليز على بلادنا وقال أحمد لطفى السيد قولته التى جرت على كافة الألسن عن تلك المعاهدة عندما وصفها بأنها «أصبحت غير ذات موضوع».

ولكن إسماعيل صدقى أصر مع ذلك متآمرا مع الحاكم على تجديد التحالف مع الإنجليز بمعاهدة جديدة فقاومت هذا الاتجاه مقاومة عنيفة مع غيرى من المواطنين وإذا بإسماعيل صدقى يغلق الصحيفة التى كنت أرأس تحريرها ومعها اثنتا عشرة صحيفة ومجلة أخرى ويلقى علينا القبض باسم الشيوعية وأودعنا فى

السجون ،وانجلت هذه المحنة عن لا شيء والتقيت بعد خروجي من السجن مع أستاذى أحمد لطفى السيد وسألته كيف وافق على هذا الإجراء فأجاب بأن إسماعيل صدقى حضر إلى مجلس الوزراء وادعى أن لديه من التقارير ما يثبت تلك التهمة وكان له ما أراد.

وهكذا أحسست كيف أن فلسفة أحمد لطفى السيد السمحة المثالية المتفائلة لم تستطع أن تقيه شر تضليل سياسى محترف بالغ المكر كإسماعيل صدقى.

أحمد أمين

وأما المرحوم الأستاذ أحمد أمين فقد كان أول اتصالى به فى منتصف العام الدراسى الأول بالجامعة عام السنة الإعدادية عندما اختارته كلية الآداب للتدريس بها بدلا من القضاء الشرعى الذى كان يعمل فيه فانتقل أحمد أمين إلى الجامعة بروح القاضى العادل التى ظلت تلازمه طوال حياته وكانت الجامعة فى أول نشأتها تحرص على طابع يميزها عن المدارس العليا التى كانت موجودة وكان هذا الطابع الجديد هو طابع البحث ومناهجه.

فمنذ أول يوم أخذنا نسمع من أساتذتنا أن الجامعة لم تفتح أبوابها لكى تلقننا المعارف بل لكى تعلمنا مناهج البحث فى كل علم ، حتى لأذكر أن الأستاذ البلجيكى هوستليه قد أنفق العام كله فى تعليمنا منهج البحث فى علم الاجتماع دون أن نعرف شيئا عن هذا العلم نفسه وما وصل إليه من نتائج ، وسار المرحوم أحمد أمين الذى كان يرتدى عندئذ العمامة فى أناقة بالغة على نفس الخطة فابتدأ تعليمه لنا بسلسلة قيمة من المحاضرات عن قواميس اللغة

العربية وتاريخها وطريقة البحث فيها وبذلك علمنا أهم جانب من جوانب البحث في اللغة. ثم اتفق أساتذنا الثلاثة أحمد أمين وطه حسين وعبد الحميد العبادى على أن يؤرخوا وفقا لمناهج البحث الحديثة لحياة العرب، على أن يتناول أحمد أمين حياتهم العقلية وطه حسين حياتهم الأدبية وعبد الحميد العابدى تاريخهم العام ،وشغلت الشواغل طه حسين والعابدى عن هذا البرنامج وإذا كان طه حسين قد أصدر فى الأدب العربى وتاريخه عدة مؤلفات متفرقة كما أعد المرحوم عبد الحميد العابدى محاضراته القيمة للنشر ووافاه الأجل قبل أن يأخذ فعلا فى نشرها فإن أحمد أمين قد وفقه الله إلى تنفيذ ما تعهد به فأصدر فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهور الإسلام وهى سلسلة من المؤلفات القيمة التى تعتبر كدائرة معارف حافلة فى تاريخ الحياة العقلية عند العرب.

وإذا كنت قد استفدت فائدة كبيرة من مؤلفات أحمد أمين الضخمة ومن محاضراته فى قاعة الدرس خلال السنوات الأربع التى قضيتها بكلية الآداب فإننى قد استفدت منه فائدة أخلاقية أعمق أثرا وأوفر خيرا وهى تمسك هذا الأستاذ الجليل بروح العدل المطلق ونزاهة الرأى وكبح جماح الهوى والنزوات وكل هذا كسب لا يمكن أن يعدله أى كسب آخر وذلك لإيمان راسخ بأن العلم بلا ضمير ما هو إلا خراب للنفس.

جريدة الجمهورية ١٩٦٠/٢/٢٠

أربعة أيام بين الريف والبدو!

أسدت إلى «القبيلة» أي أولادى جميلا حبيبا إلى نفسى، إذ حملونى يوم الخميس الماضى على أن أنتزع نفسى من بين الكتب والمحابر لكى أنزح إلى الريف بضعة أيام وذلك لأنهم على حد تعبيرهم «أجزوا» جميعا ، أى منحوا الإجازة الدراسية التى تقع فى نصف العام الدراسى بعد ظهر ذلك اليوم وطالبوا بالإجماع أن تسافر القبيلة كلها إلى بلد والدى أى جديهم فلم أر بدا من أن أنزل على حكم الجماعة وأن أرتب أمورى بحيث أفلت من سوط العمل الذى يلاحقنى دون أضرار فادحة بمقومات حياتنا المعيشية .فعلى هذا النحو وحده أستطيع أحيانا أن أختلس بضعة أيام من ملاحقة الحياة التى لا ترحم.

ولم أكد أصل إلى كفرنا بمركز منيا القمح وألقى الوالدين والإخوة والأهل وأطمئن إلى سكون الطبيعة من حولى حتى أخذت تطفو إلى ذاكرتى ذكريات بعيدة منها ما يتصل بطفولتى الأولى التى قضيتها فى «الكفر» أولا ثم مترددا بينه وبين مدرسة الألفى بمنيا القمح ثانيا، ومنها ما يتصل بقراءاتى لبعض الأدباء وبخاصة أديب الطبيعة الأكبر جان جاك روسو الذى لم أنتظر لأتعرف إليه معرفتى باللغة الفرنسية وسفرى فى بعثة الجامعة إلى باريس، بل كنت قد تعرفت به معرفة حميمة منذ شبابى المبكر بفضل الكتاب الرائع الذى

كتبه عنه أحد رواد الفكر الجادين في بلادنا وهو المرحوم ا لدكتور محمد حسين هيكل، وذلك عندما اتفق لي أن عثرت على هذا الكتاب القيم مصادفة فاشتريته وأنا لا أزال طالبا بالجامعة المصرية واصطحبته معي في الإجازة الدراسية إلى «الكفر» حيث قرأته وسط الحقول وتحت شجرة التوت على بحر بندق على نحو ما كتب جان جاك روسو نفسه مادته الأولى بين أحضان الطبيعة.

ولقد شوقني هذا الكتاب أيما تشويق إلى قراءة مؤلفات جان جاك روسو في لغتها الأصلية، وظل هذا الشوق يخامر روحي حتى تمكنت من إشباعه بعد سفرى إلى فرنسا حيث قرأت هذه الكتب فأكبرت أيما إكبار أديبنا العظيم الدكتور هيكل لأنني أحسست أنه لم يعتمد في كتابه السالف الذكر على ما كتب عن هذا الأديب الفرنسي الأكبر بل اعتمد على مؤلفاته ذاتها فقرأها وتمثل روحها واستخلص حقائقها الكبرى تم عرض كل ذلك بأسلوبه السهل الممتع الغزير المعنى النابض بالحياة.

هيكل وروسو

لقد جددت زيارتي الأخيرة لريفنا الحبيب تأملاتي فيما تبقى بنفسي من ذكريات عن أدب وتفكير جان جاك روسو وعن الدكتور هيكل وكتابه الممتع وأخذت أتساءل عن سر نفاذ هيكل إلى روح روسو وتمثلها على أدق نحو وأصدقه، وخيل إلى أن هيكل لم ينجح هذا النجاح الرائع في الحديث عن روسو إلا لأنه قد تناول هذا الحديث وهو لا يزال غض الشباب، فالشباب هو عصر الرومانسية المثالية التي تضيق بنفاق الحياةالاجتماعية الحضرية وتعقيداتها

المضنية وتهفو إلى الانطلاق بين أحضان الطبيعة حيث الخضرة النضرة والسكون الملهم والنسيم الصافى، بل واللهفة الروحية التى تصبو إلى المطلق وتعشق اللا نهائى وتستشعر الجلال والرهبة ،ومن المؤكد أن الدكتور محمد حسين هيكل - طيب الله ثراه- كانت فى نفسه عفة وبساطة وانطلاق يحببان إليه حديث رسو عن الحياة وسط الطبيعة وما فيها من سحر وانطلاق وإنى لأذكر إننى فى صدر شبابى كنت أناضل مع الجبهة السياسية المضادة لحزب الدكتور هيكل ومع ذلك أشهد الله أننى ما لقيت هذا الرجل يوما أثناء احتدام الصراع بيننا وبينهم إلا سكنت إليه نفسى واطمأنت روحى واستهواني حديثه الذى يشع بنور الثقافة وينبض بنضرة البساطة الطبيعية الأليفة حتى لرأيتنى أهش لواحد من خير طلبتى بمعهد الدراسات العربية العليا وهو الأستاذ رضوان إبراهيم عندما عرض على أن تكون الرسالة التى يعدها للحصول على درجة الماجستير عن «الدكتور محمد حسين هيكل» :حياته وأدبه» وذلك لأنه سيتيح لى بذلك فرصة إعادة قراءة مؤلفات هيكل وبخاصة ما اتخذته من مؤلفاته غذاء لروحى الشابة فى صدر العمر وبخاصة كتابيه «فى أوقات الفراغ» و «جان جاك روسو: حياته وأدبه» وإن كنت أشعر بأسف شديد عندما أذكر أن هذا الكتاب الأخير القيم لم يطبع غير الطبعة الأولى المتواضعة على ورق الجرائد، مع أنه كتاب خليق بأن يطبع مرة ومرة وأن تذيع قراءته بين طلابنا ومثقفينا.

طاجن الأم

وسألتنى أمى عن طعام أشتهيه فذكرتها بالطاجن الذى كانت

تعده لى يوم الخميس من كل أسبوع أثناء دراستى بمدرسة الألفى التى كانت ابتدائية عندئذ وتابعة لمجلس المديرية فأصبحت اليوم ثانوية تابعة لوزارة التربية ، فأثارت هذه الذكريات شجون الوالدة الحبيبة واغرورقت عيناها إذ رأت ابنها وقد وخض الشيب رأسه لا يزال يذكر فى حنان ألطافها الأولى، وأعربت عن اعتزازها بولدها الذاكر لفضلها المقر بجميلها وشمرت عن ساعدها الذى أوهاه الزمن لابنها «الدكتور» أو على الأصح لابنها «محمد » الطاجن المطلوب، وقال الأب الحكيم «الطاجن سهل ولكن هل ستجد له نفس المذاق الذى كنت تجده أيام طفولتك الأولى؟».

وصدقت حكمة الأب فيما يختص بلذة الطعام ، ولكن الابن الذى أصبح بدوره أبا وجداً لحسن الحظ نوعا جديدا من اللذة عوضه عما فاته من لذة الطفولة الغضة المقبلة على الحياة، أى لم تكد الأم نعد الطاجن الشهى وتضعه أمام محمد ابنها حتى دعا محمد زوجته وأولاده أى قبيلته كلها إلي مشاركته في الطاجن رغم ما كانت تحفل به مائدة الأب الكريم من ألوان الطعام الأخرى. وبالرغم من أن محمد لم يصب من الطاجن إلا بعضه بعد أن كان ينفرد به فى سالف العصر والأوان إلا أنه قد وجد فى مشاركة زوجته وأولاده له فى الطاجن لذة لا تعدلها لذة وكان لسان حاله يردد ذلك البيت العربى القديم الرائع بجماله الإنسانى وهو قول زعيم الصعاليك عروة بن الورد:

أقسم جسمى فى جسوم كثيرة

وأحسو قراح الماء والماء بارد

أصالة ابن خلدون

عقبت على مقالات الصديق أحمد رشدى صالح عن ابن خلدون في مقال وسعت من آفاقه وجعلته يشمل الموقف المنهجى العام الذى يجب أن نقف فى دراستنا وتقييمنا لتراثنا القومى على ضوء الثقافة العالمية، وقلت إن من واجبنا أن نعمل على إبراز اللبنات القوية التى وضعها عدد من أفذاذ مفكرينا وعلمائنا العرب القدماء فى أسس الثقافة والعلم والحضارة التى ينعم بها اليوم عالمنا المتحضر. ولكن على شرط أن نذكر دائما أن صروح الثقافة والعلم والحضارة قد أضافت إليها بعد ذلك شعوب أخرى وبخاصة الشعوب الأوروبية لبنات أخرى كثيرة يجب أن ندرسها وأن نستفيد منها لكى نلحق الركب فى أسرع وقت مستطاع بعد أن تخلفنا عنه قرونا لأسباب قاهرة. وأشرت إلى خطر الاندفاعات العاطفية التى يمكن أن تفسد هذا المنهج أو أن تعوق تقدمنا السليم.

وبالرغم من أننى قد استشهدت على المنهج الذى أراه بابن خلدون الذى سبق مفكرى العالم إلى أنواع من الإبداع الفكرى الأصيل فى مجالات فلسفة التاريخ ومنهج البحث فيه والأسس العامة لعلم الاجتماع- إلا أننى لم أكن أقصد قطعا تجريح الصديق أحمد رشدى صالح وذلك لأننى أعلم أنه وإن كان قد ركز فى مقالاته عن ابن خلدون علي الإشادة بفضله وسبقه إلا أننى أعرف أنه قد سبق

له أن درس ابن خلدون دراسة علمية موضوعية استقصى فيها نواحي إبداعه الفكرى وفتوحاته العلمية ودرس إنتاجه وما كتب حوله فى الشرق والغرب وذلك فى كتابه «رجل فى القاهرة» مما ينفى عنه أخطار الاندفاعات العاطفية الساذجة.

وكتب الصديق الدكتور لويس عوض عن ابن خلدون مطالبا بالبحث عن مصادر تكوين ابن خلدون الثقافية ومدى استفادته من ثقافة عصره العربية اللغة وغير العربية كمقدمة لتحديد أصالته على وجه علمي دقيق.

وعاد الصديق رشدى إلى نفس الموضوع مرة أخرى فى مقال استهله بعتب ودود على ما ظنه تجريحا فى مقالي ثم انطلق ليرد على الدكتور لويس مؤكدا ومرجحا أن ثقافة ابن خلدون كانت عربية خالصة وأنه لم يحصل ثقافته عن طريق أية لغة أوروبية كاللاتينية أو الإسبانية.

والشيء الذى أحرص عليه هو أن أقي منهجنا فى البحث عن تراثنا من أن ينقلب إلى مناقشات بيزنطية بدلا من أن يقصد إلى الهدف مباشرة.

فتراث ابن خلدون مثلا ينقسم بالبداهة إلى قسمين كبيرين: قسم مكتسب وقسم يبدو لنا أصيلا مبتكرا ونحن ممن يؤيدون فيه صفتي الأصالة والابتكار.

أما القسم المكتسب فيشمل حديثه فى المقدمة، وفى موسوعته التاريخية المسماة «ديوان العبر» عن أنواع العلوم والمعارف التى كان علماء العرب ومصنفوهم والكتب المترجمة قد سبقت إلى الحديث

عنها، وكذلك أخبارالعجم والبربر والعرب التى أوردها ابن خلدون فى كتابه التاريخى، وإن يكن لسوء الحظ لم ينجح فى تطبيق أصول المنهج التاريخ الذى ابتدعه على كل هذه الأخبار مما جعل كتابه لا يتفوق فى شيء على كتب سابقيه من مؤرخى العرب كالمسعودى والطبرى وغيرهما الذين تعتبر كتبهم من مصادر التاريخ لا تأريخا علميا بالمعنى الذى نفهمه اليوم.

وفيما يختص بالجانب المكتسب فى مؤلفات ابن خلدون يستوى عندى أن يكون قد حصله عن طريق ما كان قد ترجم إلى العرب فى عصره المتأخر من كتب يونانية ولاتينية وأسبانية أو كان قد حصله مباشرة من تلك المؤلفات بلغاتها الأجنبية فالمهم أنه قد استفاد كرجل عبقرى مستنير من ثقافة عصره، وأما ما يستحق البحث والتنقيب حقا فهو الجانب الذى نراه أصيلا ومبتكرا عند ابن خلدون وهو جانب يلوح لنا أن ابن خلدون قد اهتدى إليه بعبقرية فذة حمتله على أن يحس بحاجات فكرية جديدة، وأن يرسم منهجا لإشباعها.

ففكرة المنهج النقدى فى كتابة التاريخ وضرورة دراسة مصادره وغربلتها ورفض ما أتلفه الجهل أو التعصب أو السذاجة من تلك المصادر فكرة لم نعثر عليها فى الدراسة التى أفنينا فيها العمر للثقافة اليونانية القديمة مصدر الثقافة الأوروبية كلها -لم نعثر عليها قوية مركزة إلا عند المؤرخ الكبير توكيديدس صاحب الكتاب الشهير عن «حرب البليبونيزيا» أى الحرب التى دارت فى القرن الخامس قبل الميلاد بين اسبرطة وأثينا حيث يتحدث فى مقدمة هذا الكتاب عن الروايات الخرافية القديمة وينقدها ويحذر منها، ويدعو

إلى ما يشبه المنهج العلمى الحديث فى كتابة التاريخ ونقد مصادره نقدا عميقا.

وقد أثبتت جميع الأبحاث التى قام بها المستشرقون وغير المستشرقين أن العرب القدماء لم يعرفوا توكيديدس ولم ينقلوا عنه شيئا فى حين عرفوا المؤرخ الآخر هيرودوتوس ونقلوا عنه الكثير من الروايات غير المحققة.

والذى نرجحه هو أن ابن خلدون قد أحس بعبقريته الفذة ما فى كتب سابقيه مؤرخى العرب من روايات مدخولة وغير معقولة وهذه سمة من سمات العبقرية التى تسبق غيرها دائما فى الإحساس بوجود مشكلة ثم تعمل على تحديدها ،وتحديد المشكلة بدء فى حلها.

وبمراجعة مقدمة ابن خلدون وهى صرح مجده نستطيع أن نتبين كيف هدته عبقريته إلى الإحساس بوجود هذه المشكلة وكيف هداه تحديدها إلى وضع أسس الفلسفة التاريخية والمنهج العلمى فى كتابة التاريخ ، ثم البحث فى الاجتماع كوسيلة هامة لتسديد هذا المنهج العلمى.

فهو فى هذه المقدمة يتحدث عن أسباب تطرق الكذب للأخبار التاريخية ويحصرها فى سبعة : ١- التشيعات للآراء والمذاهب، فإن النفس إذا خامرها تشيع لرأى قبلت ما يوافقها لأول وهلة وكان التشيع غطاء على بصيرتها فتقع فى الكذب- ٢- الثقة بالناقلين دون تعديل أو تجريح.

٣- الذهول عن المقاصد. ٤- توهم الصدق . ٥- الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع. ٦- تقرب الناس لأصحاب المراتب بالثناء. ٧- الجهل بطبائع الأحوال فى العمران إذ لكل حادث من الحوادث ذاتا

كان أو فعلا طبيعية فى ذاته وفيما يعرض له من أحوال.

وما إن اجتمعت لابن خلدون أسباب الكذب فى الأخبار مستقريا إياها من كتب المؤرخين السابقين وضاربا لها الأمثال حتى وجد نفسه على أبواب كشوفات علمية ضخمة فى منهج البحث التاريخى الذى نعرف اليوم وبعد استكماله- أنه يقوم على ما نسميه النقد الخارجى أى نقد المصادر وثائق كانت أم رواة وتبين الروح والعقلية التى صدرت عنها تلك الأخبار ، ثم النقد الداخلى أى نقد تلك الأخبار فى ذاتها ومدى معقوليتها وانطباقها على طبائع الأحوال فى العمران .ولمعرفة هذه الطبائع نادى ابن خلدون بعلم الاجتماع وضرورة البحث فيه، وشقق لهذا البحث سبله الأولى وإن يكن من الواضح أن هذه السبل لم يتابع لسوء الحظ مفكرونا العرب السير فيها بعد ابن خلدون،، بل ظلت واقفة حيث تركها حتى جاء الأوروبيون فواصلوا السير فيها وتنبهوا إلى سبق ابن خلدون إليها وشادوا به منصفين.

وكل ما حرصت على إبرازه هو أننا وإن كنا نعتز بأصالة ابن خلدون وسبقه في هذه الميادين- إلا أننا لا نقبل لمواطنينا أن يقفوا عند ما وصل إليه ابن خلدون بل أن يتابعوا السير حتى يلموا فى أسرع وقت ممكن بالمكاسب الضخمة التى أضافها غيرنا إلى هذه الصروح حتى نسارع إلى اللحاق بالركب، بل ونسير فى طليعته كما سرنا من قبل، وما أظن أن فى مثل هذا الرأى المخلص ما يغضب الصديق أحمد رشدى صالح أو غيره من كتابنا المستنيرين المخلصين.

جريدة الجمهورية ١٩٦١/١٢/٢٣

جمال الدين الأفغانى

نظمت جمعية الشبان المسلمين ندوة يوم السبت الماضى عن المصلح الكبير جمال الدين الأفغانى.

ولقد كان نصيبى فى تلك الندوة الحديث عن جمال الدين الأفغانى والإصلاح الاجتماعى فحرصت على أن ألفت نظر السامعين إلى فكرة عميقة كان يؤمن بها جمال الدين ويخالف فيها عندئذ نظرة غيره من المصلحين وبخاصة مدحت باشا وزملائه من أنصار تركيا الفتاة الذين كانوا يصبون جهدهم على المطالبة بالدستور والقوانين الصالحة لتنظيم الحكم، مؤمنين بأن هذا الدستور وتلك النظم كفيلة بأن تقضى على الفساد وأن تعلي شأن الوطن والمواطنين، وذلك بينما كان جمال الدين يرى أن أى دستور وأية نظم لا يمكن أن تقوم الفساد وترفع من شأن الوطن وبنيه ، وذلك ما لم تصلح النفوس أولا فصلاحها كفيل بأن يصلح الحكومة والنظم، والعكس بالعكس.

وله فى ذلك أقوال يجب أن نتدبرها مثل قوله: إن القوة النيابية لأى أمة لا تكون لها قيمة حقيقية إلا إذا نبعت من نفس الأمة وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة له فهو مجلس موهوم موقوف على إرادة من أحدثه».. وكأنه بتلك الأقوال كان يتنبأ بما بلته مصر من دستورها السابق الذى كان يعتبره

ملوكها الطغاة هبة منهم يعبثون به كما يشاءون.

وهكذا كان جمال الدين يرى أن إصلاح النفوس مقدم على إصلاح النظم وهو رأى قد يكون فيه شيء من المبالغة، لكنه لا يخلو من صدق عميق وذلك أنه إذا كانت النظم الفاسدة خليقة بأن تفسد النفوس وتغرس فيها الذل والصغار فإن فساد النفوس خليق هو الآخر بأن يفسد تطبيق خير النظم وأن يذهب بمزاياها.

وأما إصلاح النفوس الذى كان يدعو إليه جمال الدين، فإننا نستطيع أن نجد وسائله عند هذا المصلح الكبير وقد تركزت فى عملية تحرير كبرى.

فهو يدعو أولا إلى تحرير العقول من الأوهام، وله فى ذلك كلمة جامعة هى قوله :«إن قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام»..

وبالفعل نراه يبذل كل جهد فى مقاومة الأوهام التى تسربت إلى عقول المسلمين باسم الدين، كأوهام التوكل والهرب من المسئولية باسم القضاء والقدر والتكاسل عن الجد فى الحياة، انتظارا لرحمة الله وكرمه ثم تلك الأوهام التى أذاعها بعض المستشرقين المغرضين مثل رينان عندما زعم أن الإسلام يحارب المدنية والعلم فانبري السيد جمال الدين لتفنيد تلك المزاعم الباطلة أثناء إقامته فى باريس، وواصل هذا الاتجاه الصحيح من بعده تلميذه الإمام محمد عبده.

ولا يقل أهمية عن تحرير العقول من الأوهام تحرير الناس من ذل الفقر الذى يعتبر أشق أنواع العبودية

والسيد جمال الدين كان يرى أن الاشتراكية آتية لا ريب فيها لتخليص الناس من ذلك الفقر، والمساواة بينهم على أساس من

العدالة الاجتماعية فنراه يقول: «إن دعوى الاشتراكية وإن قل نصراؤها اليوم فلابد أن تسود فى العالم يوم يعم فيه العلم الصحيح ويعرف الإنسان أنه وأخاه من طين واحد أو نسمة واحدة، وأن التفاضل إنما يكون بالأنفع من المسعى للمجموع».

وأما عن وسيلة تحقيق تلك الاشتراكية فإنه قد كان يوثر أن تتحقق عن طريق الدين وتعاليمه، وذلك لأنه كان يرى فى الإسلام اشتراكية تقوم على المحبة والإخاء وإحسان الغنى للفقير.

مجلة الثورة ١٩٥٦/٣/٢٢

المنفلوطى.. أديب تقدمى ثائر

يقولون عادة إن الناس يميتون الأدباء وهم أحياء ويحيونهم وهم أموات، بمعنى أن المجتمعات البشرية تمجد أدباءها بعد موتهم أكثر مما تمجدهم وهم أحياء.

فكم من أديب ظل شقيا مغمورا وهو حى حتى إذا مات أقيمت له الاحتفالات والمهرجانات، وأنفقت على ذكراه الأموال ومع ذلك فلست أدرى لماذا لم يحظ مصطفى لطفى المنفلوطى بالشطر الثانى من هذه القضية وذلك بالرغم من أنه علم كبير من أعلام أدبنا العربى الحديث.

ولا زلت أذكر عن نفسى كيف كنت أقرأ روايات المنفلوطى وأنا يافع فى حقل والدى على شاطئ بحر بندق فى قريتنا بمركز منيا القمح والدموع تنهمر من عينى حزنا على «مجدولين» أو على «اليتيم »أو على « بول وفرجيني» أو إعجابا بسمو روح سيرانو دى برجراك وتضحيته بموهبته الفذة فى سبيل المحبوبة التى تعرض عنه لدمامته..

كما أذكر أنه من أوائل من علمونى فن الأسلوب المرسل الجميل النابض بحرارة العاطفة، ولا أظن أن محبتي للمنفلوطى كانت نتيجة قاصرة على مرحلة المراهقة التى عرفته فيها فلهذا الأديب مكانته التى لا تنكر فى تطور أدبنا العربى المعاصر.

وإذا كنا قد تخطينا اليوم بعض الشيء مرحلة العاطفية الرومانسية المنسابة فإننا مع ذلك لا يمكن أن نغفل المكانة التى يحتلها هذا الكاتب المثالى الحساس بين أعلام أدبنا العربى الحديث.

لا أدرى.. لماذا؟

لكل هذا ولكثير غيره لا أدرى لماذا لا يحتفل أدباؤنا ونقادنا كل عام بذكرى هذا الكاتب الكبير كما يجتفلون بذكري غيره من كتابنا المعاصرين فلا أذكر أأننى حضرت يوما أو دعيت يوما للاشتراك فى إحياء ذكرى هذا الكاتب أو سمعت بإحيائها ولفت نظر الأجيال الجديدة إلى أدبه الخالد ولهذا سررت عندما قدم إلى الصديق الشاعر محمود حسن إسماعيل كتابا جديدا ألفه الأستاذ محمد شلبى المدرس بمنفلوط الثانوية للبنين عن مصطفى لطفى المنفلوطى، وإن يكن المؤلف قد وضع تحت اسم المنفلوطى صفة «الأديب الاشتراكى» طبعا مجاراة للمرحلة الحاضرة من حياتنا وأملا فى أن تجذب هذه الصفة الأنظار إلى المنفلوطى وإلى كتاب الأستاذ محمد شلبى على السواء..

فالمنفلوطى كان بلا ريب رجلا عاطفيا خيرا نبيل الإحساس شديد العطف على الفقراء والمساكين الذين ذرف من أجلهم «عبراته» وصوب إليهم «نظراته» الحانية ،ولكنه بالبداهة لم يكن اشتراكيا بالمعنى العلمى لهذا الاصطلاح ولا خطرت له الاشتراكية على بال وربما لم يسمع بها فى حياته ولا قرأ عنها،.

غرماؤه.. المياسير

ولكنه مع ذلك كان كاتبا تقدميا بل وكاتبا ثوريا من عدة نواح

على نحو ما نحس مثلا من قوله: «إن الله لم يخلق الضعفاء والمساكين ليكونوا ترابا تدوسه أقدامنا وتمشى فوقه نعالنا كلما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، ولم يمنحنا القوة والعزة لنتخذ منها أسواط عذاب نمزق بها أجسامهم ، وننزف بها دماءهم وكل ذنوبهم عندنا أنهم أذلاء مستضعفون لا يملكون من القوة والعزة ما نملك ولا يذودون عن أنفسهم بمثل ما نذود». أو قوله: «ما ضنت السماء بمائها ولا شحت الأرض بنباتها ولكن حسد القوى الضعيف عليهما فزواهما عنه واحتجزهما دونه فأصبح فقيرا معدما شاكيا متظلما غرماؤه المياسير الأغنياء لا الأرض والسماء».

فهو إذن لا يكتفى بالبكاء على الفقراء وطلب الرحمة لهم بل ينبض أيضا بالثورة ضد ظالميهم،ولكنه لم يهتد طبعا إلى العلاج الاشتراكى القائم على الحق فى العمل المجزى العادل الأجرة، بل ظل محصورا فى نطاق طلب الرحمة والعطف والصدقة حتي ليصح أن يقال عن نزعته إنها نزعة اشتراكية رومانسية إذا صح هذا التعبير ولا غرابة فى ذلك، فقد كانت ثقافته عربية إسلامية بحتة.

قضية السفهاء

حدث فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٧ أن وزعت على مستقبلى الخديو عباس الثانى حين عودته من رحلة ترفيهية بأوروبا قصيدة هجاء له وطعن فيه وتسفيه لحكمه الذى اتسم بالطغيان والجبروت ونصها:

قدوم ولكن لا أقول سعيد

ومُلك وإن طال المدى سيبيد

رحلت ووجه الناس بالبشر باسم

وعدت وفى كل القلوب شهيد

علام التهاني؟! هل هناك مآثر

فتحمد أم سعى لديك حميد

تذكرنا رؤياك أيام أنزلت

علينا خطوب من جدودك سود

رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا

مصوب سهم بالبلاء شديد

فلما توليتم طغيتم وهكذا

إذا أصبح التركي وهو عميد

فما قام عنكم بالعدالة طارف

ولا سار مثل السداد تليد

كأنى بقصر الملك أصبح بائدا

عن الظلم، والظلم المبين عبيد

ويندب فى أطلاله اليوم ناعيا

له عند ترداد الرثاء نشيد

أعباس ترجو أن تكون خليفة

كما ود آباء ورام جدود

فياليت دنيانا تزول وليتنا

نكون ببطن الأرض حين تعود

وكانت القصيدة غير ممضاة وقد شاع أن الأستاذ أحمد فؤاد صاحب جريدة «الصاعقة» هو الذى قام بطبعها، ولما اعترف فى تحقيق النيابة أنه هو ناظمها لم تأخذ النيابة باعترافه وقبضت على

مصطفى المنفلوطى والسيد محمد توفيق البكري الذى كان خصما للخديوى، والشيخ محمد الخيامى صاحب المطبعة التى طبعت بها القصيدة وقدم الثلاثة إلى المحاكمة فقضت محكمة جنح السيدة بحبس المنفلوطى سنة وتغريمه ثلاثين جنيها وحبس البكرى عشرين شهرا وتغريمه ثلاثين جنيها وبراءة الخيامى.

وكان لهذه المحاكمة دوى شديد حتى عرفت فى البلاد كلها باسم قضية السفهاء. وقد نشرت هذه القصيدة بمجلة أنيس الجليس التي كانت تصدر بمدينة الإسكندرية كما نشرت أيضا بجريدة «الصاعقة» يوم نوفمبر سنة ١٨٩٧ فصودرت «الصاعقة» كما أغلقت لنفس السبب مما زاد فى حظ هذه القصيدة فى الذيوع والانتشار.

شوقى .يتدخل

وظل المنفلوطى فى السجن ستة شهور حتى نجح الشيخ محمد عبده فى استصدار العفو عنه ،ويقول الأستاذ محمد شلبى الذى جمع هذه المعلومات إن المنفلوطى طلب منه أن يعدل عن موقفه فرفض وأصر على كل حرف في القصيدة وذلك بينما تدخل أحمد شوقى أمير الشعراء فى الأمر بتعديل القصيدة فقال:

قدوم ولكنى أقول سعيد

وملك وان طال المدى سيزيد

وذلك على أمل أن تذيع قصيدته المعدلة فتخمل الاخرى .

وبالرغم من أن الأستاذ محمد شلبى قد قام بجمع عدد من المعلومات عن هذه القصيدة- إلا أنه لم يعالج الموضوع بمنهج تاريخى علمى سليم فهو يقول مثلا إنه قرأ أن هذه القصيدة لم تكن

للمنفلوطى وإنما كانت للمرحوم على الغاياتى صاحب جريدة «منبر الشرق» وصاحب ديوان «وطنيتى» ولكنه لا يخبرنا أين قرأ هذا الخبر الذى أخذ يعمد إلي نفيه ويستشهد برواية بعض المعاصرين للمنفلوطى الذين لا يزالون أحياء مثل الشيخ محمود أحمد قراعة أحد علماء الأزهر الذي يروي أنه كان في بيت المنفلوطي حين جاء رجال المباحث للقبض عليه ثم يورد الأستاذ محمد شلبى عدة معلومات متناقضة فبعد أن ذكر الحكم على البكرى بالحبس يعود فيقول إن السيد على يوسف سعى فى إخراجه من هذه التهمة ونجح فى مسعاه واعترف مصطفى لطفى المنلفوطى بأنه صاحب هذه القصيدة فعوقب هو وأحمد فؤاد بالحبس بضعة شهور، وأما البكرى فعزل من نقابة الأشراف وبقى شيخا للطرق الصوفية.

ويتساءل الأستاذ محمد شلبى بحق عن تعليله لمدح المنفلوطى للخديو عباس فى ٨ أكتوبر سنة ١٨٩٦ ولكنه لسوء الحظ لا يجيب إجابة مقبولة على هذا التساول فى تعلل تحول المنفلوطى بأنه هجا الخديو عندما فشلت الثورة العرابية واستشرى فى البلد الفساد،وتلاميذ المدارس الأولية نفسها يعرفون أن فشل الثورة العرابية لم يكن فى سنة ١٨٩٧ بل قبل ذلك بكثير، والأمر يحتاج بعد كل هذا إلى بحث تاريخى جدي أرجو أن يقوم به أحد كبار مؤرخينا أو عميدهم أستاذنا الدكتور محمد صبرى ، وإنى لأرجو أن يفعل وهو المتصل اتصالا وثيقا بتاريخ تلك الفترة وبمصادرها التاريخية..

عدو.. الاحتلال

وأما عن إحساسى الخاص فإننى أتمنى أن لو ثبت صحة نسبة

هذه القصيدة إلى المنفلوطى الذى وصفته بالتقدمية والثورية والوطنية أيضا ، ومن المعلوم أنه كان يهاجم الاستعمار بتوقيع « عدو الاحتلال»، وكان يلجأ إلى الشعر أيضا فى هذا الهجوم ويرى أن تحقق العدل فى مصر كفيل بأن ينكس راية دولة الظلم فيها مثل قوله:

ألا رايه لىعدل فى مصر تخفق

لعل مساعى دولة الظلم تخفق

وأنا فى النهاية أشكر الأستاذ محمد شلبى اجتهاده فى جمع ما استطاع جمعه من معلومات ووثائق عن أديبنا الكبير المظلوم مصطفى لطفى المنفلوطى وأطالب الدارسين والباحثين بأن ينتفعوا بهذه المعلومات والوثائق ويجمعوا غيرها كأساس لدراسة علمية تاريخية وأدبية فنية لهذا الأديب الكبير الذى يدين له جيلنا، ونفر كبير من الجيل اللاحق بتغذية حاسة الجمال الأدبى فى نفوسنا وتهذيب عواطفنا وإرهافها على نحو يستحق منا أن نذكره كلما حلت ذكراه كل عام، ذكرى وفاته رحمه الله فى ١٢ يوليو سنة ١٩٢٤ .

جريدة الجمهورية ١٦ اغسطس ١٩٦٢.

فلسفة المازنى وحياته

لقد كنت أعجب فى صدر حياتى لماذا اختار إبراهيم عبد القادر المازنى لكتبه تلك العناوين العجيبة مثل «حصاد الهشيم» و «قبض الريح» و «صندوق الدنيا»، وكنت أتساءل عن السر الذى يدعو مثل هذا الكاتب الموهوب إلى الحط أو محاولة الحط من قيمة كتبه بوصفه إياها بأنها حصاد هشيم أو قبض ريح أو ملهاة أطفال. وهى كتب فتحت لنا آفاقا ونحن فى مقتبل الحياة وبصرتنا بأسرار، وقادتنا إلى التفكير، أو أثارت فينا الأحاسيس. وزادنا حيرة وتساؤلا ذلك الاطمئنان العجيب إلى الصحراء التى كان المازنى يقطن على حدودها بحى الإمام، حيث تتلاقى القبور والمساكن عندما كتب الكتب السابقة. وقد صدر حصاد الهشيم بمقال عن هذه الصحراء اتخذ له عنوانا «على تخوم العالمين،» واستهله بقوله: «بيتى على حدود الأبد- لو أنه كان لأبد حدود!- وليس هو بيتي وإن كنت ساكنه وما أعرف لى شبر أرض فى كل هذه القرى- ولقد كانت لى قصور- ولكن فى الآخرة!! بعت بعضها والبعض مرهون بحينه من الضياع ووقفت معلقا بين الحياتين كما سكنت على تخوم العالمين!»

ثم وصف تردده بين الحياة والصحراء فقال «وفى كل يوم أهبط إلى ساحل الحياة وأتريث على حفافيها برهة أشهد عبابها المتدفق ينهزم على الرمال ويتكسر على الحصى والصخور، ويقذف بأشلاء

غرقاه، ثم يرتد ليؤوب بسواهم مطويين فى أكفان أثباجه محمولين على نعوش من مربد أمواجه .وبعد أن أقضى حق العين من التأمل والشهود، كأنى موكل بعد الموتى وحساب البيود، أكر راجعا إلى صحراواتى!» ويختتم هذا المقال الرائع بقوله: «ويا عجبا أهبط إلى ساحل العيش كل يوم وأعود وبى حاجة أن أميط عن نفسى ما علق بها فى الأوحال، فأغشى الصحراء فأصفو من الأخلاط والأوشاب وأرجع ولم يعلق حتى بثوبى التراب..» نعم كنت أعجب من كل هذا وأتساءل عن سره حتى شاء الزمن أن نمد من أفق ثقافتنا وأن نبلو الحياة وإذا بما غمض فى صدر الحياة يتضح عند نضوجها وإذا بنا ندرك أن المازنى رحمه الله قد كانت له فلسفة وأن هذه الفلسفة لم تكن نظريات بل إحساسا وسلوكا فى الحياة.

لقد انتهى المازنى إلى السخرية من الحياة ومن فى الحياة وما فى الحياة ولم يعد يعبأ بشىء وامتدت تلك السخرية حتى شملت عصارة نفسه وجهد حياته فلم ير فيما يكتب غير حصاد هشيم وقبض ريح وملهاة أطفال وإن لم ينته إلى هذه الفلسفة المرة الحزينة إلا بعد جهاد مرير بينه وبين نفسه من جهة وبينه وبين واقع الحياة من جهة أخرى. وما نظن أن انتصاره قد كان كاملا وذلك لأنك لن تعدم أن تجد من حين إلى حين وميضا خلل الرماد.

وإذا كان الكاتب الموهوب قد قال يوما فى حصاد الهشيم تحت عنوان «صفحة سوداء من مذكراتى»: «وإنى لأقضى أيامى على نحو ما أروح وأجىء وأكتب وأتكلم وأضحك وآكل وأشرب ولكنى لا أرجو ولا أغضب ولا أحزن ولا أطرب، ولا أرهب ولا أرغب لأنى لست حيا

الآن». نعم إذا كان الكاتب الموهوب قد قال هذه العبارات المحزنة يوما من الأيام فإنها ولا ريب لم تكن إلا لمحات قاتمة لابد أن ضوء الحياة قد بدد من ظلامها.

ولم يكن المازنى بغافل عن سبل النجاح فى هذه الحياة، التى لا تعرف الرفق ولا تسكن إلى الملاينة. ولقد كتب هو نفسه فى حصاد الهشيم أيضا عن النجاح فقال: «إن الحياء شىء حسن له فضله ومزيته، ولكنه على ذلك ثوب يحسن أن يخلعه المرء إذا شاء أن يفوز بحقه ، ويظفر بما هو أهل له فقد تكون أقوى الناس استعدادا وأكثرهم مواهب وملكات وأقدرهم على الاضطلاع بالأعباء والقيام بخطيرات الأمور وجلائل المساعى، ويحرمك الحياء أن تجنى ثمرة تعبك وزهرة غرسك ، وليس للخجل معنى فى الحياة أو نتيجة إلا أن الناس يملأون بطونهم وأنت جائع ويدخلون وأنت واقف بالباب ويتقدمونك وأن متردد. واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون المنزلة التى تستحقها لم يرفعك الناس إليها ، بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضا ويزحزحونك إلى ما وراءها» ، لم يكن المازنى إذن بغافل عن سبل النجاح فى مثل هذه الحياة ولكنه بالرغم من ذلك لم يكن يحفل بشىء وكان يسخر من كل شىء، وأكبر الظن أنه لم يعاد هذه الحياة إلا بعد أن انتهى به طول النظر إلى الإيمان بأن النجاح والفشل سيان وبذلك يدخل كاتبنا الموهوب فى عداد كبار المتشائمين.

ولقد أفصح المازنى رحمه الله فى قصته المسماة «إبراهيم الكاتب»، أو على الأصح فى مقدمة هذه القصة عن الكيفية التى انتهى بها إلى هذه الفلسفة الساخرة المتشائمة وذلك عندما حاول أن

يدلل فيّ دعابة لطيفة على أنه لم يتخذ من نفسه بطلا لقصته فقال: «ولست أحتاج أن أقول أنى لست بإبراهيم الذى تصفه الرواية وأن هذا المخلوق ما كان قط ولا فتح عينيه على الحياة إلا فى روايتى ثم إنى لست أرضى أن أكونه فما تعجبنى سيرته ولا مزاجه ولا التفاتات ذهنه وقد ندمت على خلقه بعد أن سويته، فلو كان دمية لحطمتها وطحنتها ولو كان صديقا لجفوته ونبوت به ، ذلك أنه يتناول الحياة باحتفال وأنا أتلقاها بغير احتفال، وهو يعبس للدنيا وأنا أفتر لها عن أعذب ابتساماتى وأحس السرور بها يقطر من أطراف أصابعى كالعرق ،وهو مغرم بالتفلسف وأنا أعد الواحد من هذا الطراز مرزوءا يستحق المرثية ، وهو وعر متكبر وأنا سمح متواضع، وهو عنيد وأنا ريض سلسل، وهو نفور وأنا عطوف، وفى نفسه مرارة وأنا مغتبط بالحياة راض عنها قانع بها، وهو كأنما يريد أن يخلق الدنيا والناس على هواه، ولذلك تراه قليل التسامح ضيق الصدر وأنا لا أرى فى الإمكان أبدع مما كان. ولست مثله أومن بالتثليث فى الحب أو الكره ولم أمرض قط بالبينيمونيا إلخ.. فليس بيننا كما ترى من تشابه سوى أن كلينا قصير قمئ وأنا أزيد عليه أنى أصبت بالعرج فليته كان هو المصاب وأنا الناجى المعافى». نعم أفصح المازنى فى هذه الفقرات عن الكيفية التى انتهى بها إلى فلسفته الساخرة المتشائمة وذلك لأن إبراهيم الكاتب بطل القصة هو إبراهيم المازنى كاتب القصة ولا عبرة بما يدعيه من أن الشخصين مختلفان فتلك إحدى حيله الكتابية العديدة. والذى لا شك فيه أن المازنى كان يجمع بين جوانحه صفات الشخصين، أو على الأقل أنه

قد تنقل وربما ظل يتنقل بين الشخصيتين ، فمن احتفال بالحياة إلى عدم احـتفـال بهـا، ومن سـخرية إلى سرور، ومن تكبـر إلى تواضع، ومن عناد إلى سـلاسـة ، ومن مـرارة إلى غـبطة، ومن تشـاؤم إلى رضى ولا أدل على ذلك من أن يصف هذا الكاتب الموهـوب سـروره من الحياة بقوله: إن هذا السرور يقطر من أطراف أصابعه كالعرق وليس هذا من السـرور فى شىء وإنما هو جـهـد الحـيـاة وعـرقـهـا القـانى، ولسنا ندرى عندئذ كـيف تكون هذه من صـفـات إبراهـيم المازنى الطروب الذى لا يريد أن يكون إبراهيم الكاتب العابس.

لقـد جمع المازنى إذن بين التـعلق بالحـيـاة والإعراض عنهـا وإن تكن فلسفـتـه قد انتـهت إلى السـخرية من كل شىء والتنكر لكل شىء وكأنه بتلك السخرية وهذا التنكر كان ينتقم من الحياة التى لم تصبه بغـيـر الضـنى، ولم تتـرك لـه راحـة ولا اسـتـجـمـامـا، وكـأنه مـشـدود بعجلتـهـا التـى لا ترحم، وكـأن مـواهب النفس لا تسـتـحق الرحـمـة فى هذه الحيـاة وكـأنما قد كـتب على هذه المواهب أن تضنى بـالاحـتراق البطىء أو السـريع لكـى تضـىء السـبل لأناس لا يدركـون من حقـائق النفس البـشـرية غير ظاهرهـا الضـحل ،ولا يحسـون بما فى أعمـاقـهـا من مآسى.

من محاضرات معهد الدراسات العربية ١٩٥٤

وادى الصدق أو غاية المعرفة!

د. علي حافظ

«وادى الصدق أو غاية المعرفة » كتاب عثرت به مصادفة فى مكتبة« معهد الدراسات العربية العالمية»، وإذا به لصديق من أصدقاء الصبا العزيز هو الدكتور على حافظ الذى لا يزال لسوء الحظ أستاذا مساعدا بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

زاملت الدكتور على حافظ فى الدراسة الثانوية بمدرسة طنطا وزاملته فى الجامعة المصرية كما زاملته فى البعثة بباريس ولم نقف عند حد الزمالة، بل وصلنا إلى الأخوة والحياة تحت سقف واحد سنين طويلة ،وكنا نتسابق سباقا شريفا فى تحصيل العلم والتفوق فى الدراسة وفى أثناء الإجازات كنا نتبادل الخطابات المسهبة فيما نقرأ أو نشاهد ومع ذلك كان بيننا تفاوت واضح فى المزاج ومنحى الفكر ، حتى لأذكر أننى أنفقت مرة عدة أيام فى مطالعة بضع صفحات من كتاب فى تاريخ الفلسفة للفيلسوف الفرنسى ألفريد فوييه، واستعنت على ذلك بشتى المعاجم لأن معرفتنا بالفرنسية كانت لا تزال قاصرة . وعرضت فى خطابى إليه عدة مشاكل فلسفية بقدر فهمى عندئذ وطلبت إليه أن يشاركنى الرأى فى هذه المشاكل ولكننى عند ما تلقيت رده لم أعثر فيه على أى رأى فى هذه المشاكل لأنه خصصه لأمر كان أعلق بنفسه وألصق بمزاجه العاطفى المرهف وهو

وفاة بائع العرقسوس فى الحى الذى كان يسكنه على حافظ فى كفر الزيات. ومع ذلك أشهد الله أننى ما استمتعت فى حياتى بخطاب مثل هذا الخطاب الذى نفذ إلى أعماق روحى وهزها هزا حزينا مؤثرا لانقطاع نداء بائع العرقسوس العذب.

وفى باريس اجتمعنا يوما لتكريم فتاة مصرية حصلت على الدكتوراه من السربون وتبارى إخواننا فى تحيتها والاعتزاز بها، ومع ذلك أذكر أن أحدا منهم لم يبلغ من التأثير ما بلغه على حافظ الذى لم يتحدث عن العلم ولا عن الوطن ولا عن الفتاة المصرية، بل اتخذ محورا لحديثه فكرة شعرية جميلة للفيلسوف الشاعر أفلاطون، وطرز حولها حديثه الجميل، وقد صاغ هذه الفكرة بقوله: لو صيغت الحقيقة امرأة لأحبها جميع الناس.

والواقع أن على حافظ شاعر عاطفى قبل كل شىء. وإذا كانت هناك خاصية يتميز بها دون سواها فهى ما يمكن أن نسميه «أناقة الروح».

ولقد عدت فالتقيت فى كتابه هذا بتلك الأناقة الروحية الجميلة التى طالعتها فى أسلوبه، وهو يختتم كتابه بعبارة جميلة للخطيب اليوناني الشهير ايزوقراط الذي يقول عن اليونانيين القدماء أو عن خيارهم أن الذين شبوا بتهذيب الأحرار لا ينفردون على الناس بشجاعة ولا بمال ولا بشىء من هذه الطيبات، وكان أجلى ما ينفردون به من جمال هو جمال القول، وهو أكبر برهان على تهذيب كل امرئ فينا فمن سما بيانه كان سيدا فينا، وكان ذا منزلة شريفة فى العالمين.

والدكتور على حافظ من عشاق الجمال حتى ليرى فيه الصدق الحق والفضيلة، ولذلك نراه فى كتابه يعجب أكبر الإعجاب بفقرة شعرية جميلة جرت على لسان بطل لإحدى مسرحيات الشاعر اليونانى الخالد يوريبيدس حيث يقول «إننى زينت لك يا أميرتى تاجا من زهور جئتك به من مرعى بكر لا يجرؤ را ع أن يرقى إليه بأنغامه ولا تبلغ مشارفه حديد الحصاد ولا يشهد زهوره البكر كل ربيع سوى النحل فى غدوه ورواحه ويرويه نبع طاهر نقى ولا يحل لمتعلم أخذ العلم عن الكتب أن يقطف زهوره واستبيحت زهوره للذين أخذوا الحكمة للطبيعة وحدها، ولا تباح حرماته للأشرار أبدا فتقبلي يا أميرتى المحبوبة هذه الورود من يد نقية تقية واجعليها تاجا وزينة لشعرك الساطع بلون الذهب فقد أوتيت فضيلة خصصت بها بين العالمين وحدى وهى أنى أستطيع أن أصحبك وأن أخاطبك ببيانى، إنى أسمع صوتك وحده، ولا أبصر هامتك فاجعلى لى آخر أيامى جميلا كأولها».

ويتخذ على حافظ هذه العبارات الشعرية المجنحة سندا لتأييد قوله بأن الشعر وحده أدب السادة الذين أخذوا العلم طلقا من قلب الطبيعة.وكلما دانت لهم آيات الجمال والحكمة توجوا شادياتهم بما عز من الجمال والزهر وما ترضى قوة الشعر أن تجنح للمدنية ولا الرذيلة، فما يملك قلب أن يكون له جمال الشعر وسوء الرذيلة ،والشعر كان أصدق وثبة إلى العلم والكمال والحكمة، فإن أجدبت منه النفوس ضلت سبيل الجمال والخير.

وقد صدر على حافظ كتابه بمقدمة موجزة مركزة توضح هدفه

فقال: «كان وادى الصدق أو الحقيقة غاية أدب الأحرار وحكمتهم . سموا إلى مشارفه من ظلمات الجهل وقيوده فبلغوا جمال الحكمة الخالدة التى سمت بالإنسان عن قيود الزمان فهل تبلغنا تجربتنا حكمة هذا الوادى» وأما التجربة التى يشير إليها حافظ فهى تلك المشقات التى واجهها بعزم حديد عندما عقد عزمه بعد الحرب العالمية الأخيرة على السفر إلى باريس ليتم الدراسة التى كان انفجار تلك الحرب قد حال دون إتمامها والكتاب فى الواقع مجموعة من الأحاديث التى سجل فيها صديقنا الكريم أحداث تلك الرحلة وبعض مشاهداتها ممزوجة بثقافته المرهفة التى عبها سنين طويلة من أدب اليونان والرومان الرفيع وهى أحاديث مركزة رائعة الجمال بأناقة الروح التى يتميز بها على حافظ الذى تصدق عليه الكلمة الفرنسية عاشق الجمال المطلق، وهو فوق ذلك من عشاق الكمال، وتلك طائفة ممتازة كثيرا ما تشقى بالحياة ويشقى معها الناس ولكنها مع ذلك طائفة ممتازة كما قلنا، ومن الواجب أن نعتز بإنتاجها الروحى الذى ينضح جمالا ونبلا.

وأما عبارة « وادى الصدق» فأكبر الظن أن صديقنا قد استوحاها من الفيلسوف الشاعر أفلاطون ،وقد ترجم على حافظ فى الفصل الأخير من كتابه الفقرات الجميلة التى تحدث فيها أفلاطون عن وادى الصدق وهو «واد لم يتغن بجماله شاعر فى الأرض وما يستطيع شاعر إن فعل أن يوفيه حقه والأمر ما أقصه عليك ،إن علينا أن نجهر بالحق وخاصة إذا تحدثنا عن الحقيقة. إن فى هذه الوادى حقيقة غير ذات لون ولا حجم ، وما يبلغها اللمس،

وهى موجودة وجودا حقا، ولا ندركها إلا بعين الروح أى بالعقل وحده ،وكانت معرفتها غاية العلم الحق فحسب كل عالم متأمل أن يبصر أرجاء الحقيقة، ليتحرر من أثقال هذه الأرض فلا تنكشف له حقيقة حتي يدرك جمالها، فإذا أدركت الروح ذلك الوادى كان غذاؤها من مرعاه البكر حتى يبصر أسرار الجمال الحق، فإن الجمال أجلى ما تبصر الروح فى وادى الحقيقة، وهى لا تبصره إلا بالفكرة والفكرة لو استطاعت أن تمثل فى الأبصار فتاة قائمة لصبا بحبها الناس جميعا.»

وإذا كان تعلق على حافظ الشديد بوادى الصدق قد دفعه إلى شيء من التذمر بل والتشاؤم أحيانا فتلك ضريبة لابد لمثل هذا العاشق أن يؤديها لسوء الحظ، وذلك إلى أن يتحقق ذلك المثل الأعلى الذى صاغه على حافظ من أقانيم ثلاثة هى «العدل والعلم والعمل».

وبعد ، فما أسعدنى بأن اهتديت إلى «وادى الصدق» الذى غاب عنى مدة طويلة لأنه صدر عن مكتبة النهضة المصرية منذ عام ١٩٥٤.

اعترافات عبد الرحمن شكرى

طالعتنا الصحف بمناسبة وفاة شاعرنا الكبير عبد الرحمن شكرى بنبأ سار هو القرار الذى اتخذته وزارة الثقافة والإرشاد القومى بإعادة نشر دواوينه القيمة ونود فى هذا الحديث أن نلفت النظر إلى كتيب بالغ الأهمية نشره عبد الرحمن شكرى فى سنة ١٩١٦ باسم «الاعترافات».

وكتاب «الاعترافات» الذى سماه شكرى «قصة نفس» تأتى أهميته من أنه يعتبر وثيقة تاريخية تحلل وتصور تلك الحالة النفسية المتشائمة التى سادت فى جيله وعبر عنها العقاد فى قصيدته المطولة «قصة شيطان» وعبر عنها المازني فى ديوانه بجزأيه كما عبر عنها شكرى فى دواوينه السبعة وحللها وصورها كما قلنا فى «الاعترافات» ،وإذا كان المازنى قد استطاع أن يتغلب على تلك الأزمة النفسية الطاحنة بهجره الشعر إلى النثر والحساسية المتشائمة إلى السخرية والتهكم واللا مبالاة، واستطاع العقاد أن يتغلب عليها بخروجه عن ذاته ومغامراته الفكرية والسياسية، فإن شكرى قد ناء تحت عبئها حتى قضت عليه أو كادت وهو لا يزال حيا إلى أن فارق دنيانا فى ١٥ ديسمبر الحالى.

ومن يقرأ هذا الكتاب الموجودة منه عدة نسخ ضمن مكتبة المرحوم طلعت فى «دار الكتب» لا يمكن إلا أن يفكر فى اعترافات

كبـار الأدباء من أمـثـال روسـو وجيتـه وشـاتوبريان بل وتحليلات وتأملات كبار المفكرين الأدباء من أمثـال ساسكال مـارسل بروست حتـى ليخـيل إلينا أن هذا الكتـاب من أهـم وأعـمق وأجـمل الوثائق النفسية التى ظهرت فـى الأدب العربى الحديث بل ونعتقد أنه يرتفع إلى مستوى أمثاله من مؤلفات كبار الأدباء العالميين.

وعبد الرحمن شكرى لا يعترف صراحة بأن هذه الاعترافات هى اعترافاته الخاصة بل يزعم أنها اعترافات صديق له يرمز لاسمه بالحرفين «م. ن» ويزعم فى خطاب استهل به الاعترافات بأن صديقه هذا قد مل الحياة فى عالم المدنية فرأى أن يهيم فى مجاهل السودان لأن صحراءها أشبه بالأبد الذى أحبه، من المدن وإن كانت الصحراء ستضيق بنفسه كما ضاقت المدن، وقد رأى أن يودع مذكراته عند شكرى لكى تذكره بما كان بينهما من الود، ثم طلب إليه إذا مضت سنة ولم يراجعه أن ينشرها إذا وجد فى نشرها ما يفيد ، ولما كانت سنوات قد مضت لم يسمع شكرى خلالها شيئا عن صديقه صاحب الاعـتـرافـات وجعل يسـأل عنه حتى علم أنه صـار يهيم فى فـيافى السودان حتى وصل الى بلاد نيام نيام فأكله أهلها لأنه كان يحتقر الإنسانية فانتقمت منه بأن أكله أبناؤها ، وهو انتقام يثبت أنه كان مصيبا فى احتقاره إياها ،وإن يكن بعض الناس قد زعم أنه لم يمت وأنه توغل فى أواسط أفريقيا إلى مواطن الزنوج فأسرته قبيلة منهم تدعى قبيلة الشناجة ولكنهم أعجبوا بسكوته وعبوسه وكسله وقلة مبالاته بما يقع من أمور الحياة فاتخذوه إلها حاسبين هذه الصفات من صـفـات الله ،وعلى هذه الرواية يكون صـديقـه حيا يرزق يـعبـده

زنوج قبيلة الشناجة بعد أن جعلوه إلها، وعلى أية حال فإن شكرى لم ير مانعا من أن يجمع هذه المذكرات وأن ينشرها.

ولقد فسر شكرى قيمة هذه الاعترافات وفائدتها فى المقدمة التى كتبها لها قائلا: «إن الكثير من القراء سيرون نفوسهم مكبرة مرسومة فى هذه الصفحات وسبب ذلك أن العوالم الاجتماعية التى تعمل فى نفس الفرد منا تعمل أيضا فى نفوس سائر الأفراد فصفات الشباب المصرى هى صفات «م.ن» صاحب الاعترافات فالشاب المصرى فى حالة أمتنا الاجتماعية الحاضرة عظيم الأمل ولكنه عظيم اليأس وكل منهما فى نفسه عميق مثل الأبد.

فالشباب المصرى يكثر من إساءة الظن وهى صفة اشتهر بها المصريون والسبب فى سوء ظنه عصور الاستبداد الطويلة التى مرت على مصر فإنها أبقت هذا الإرث فى نفوس الأفراد لأن الاستبداد يبعث سوء الظن، والشباب المصرى ضعيف العزيمة كثير الأحلام والأطماع والأمانى يمضى أيامه فى الأحلام بدل أن يمضيها فى مزاولة الأعمال، وكذلك الخوف فإن شجاعة الشباب المصرى شجاعة متقطعة مبتورة شجاعة تستحى من نفسها، وأما خوفه فهو مبدأ عام .والشاب المصرى عنده ميل عظيم إلى مزاولة الأعمال العظيمة المجيدة ولكنه يعجز عنها، والشاب المصرى مهيج العواطف ولكنه غير عظيمها وهو كثير الغرور لأنه كثير الأحلام والأمانى وهو ليس عنده شىء من الاعتماد على النفس ،وهو شديد الإحساس ولكنه يبكى فى ضحكه ويضحك فى بكائه ،وهو كثير الشكوى والتضرر قليل الصبر مثل صاحب الاعترافات تحز فى نفسه قيود القدر المجنون فيجتهد

أن يصدعها عنه فلا يقدر فيزداد حزنا ويأسا، ويفكر ولكن تفكيره غير منتظم وهو كثير الحيرة والشك بالرغم من غروره ، يترك ما يعنيه لما لا يعنيه لا يعرف أى أفكاره وعاداته القديمة خرافات مضرة ولا أى أفكاره وعاداته الجديدة حقائق نافعة ،من أجل ذلك يضره القديم كما يضره الجديد فهو من قديمه ومن جديده غريق بين لجتين أو مثل كرة فى أرجل المقادير».

ويرسم لنا شكرى صورة لصديقه (م.ن) أحسبها صورته الخاصة فيقول: «كان رحمه الله يحب القراءة والتفكير وكانت تلوح فى عينيه علامات السأم والحزن والتأمل وقد تقلصت شفته السفلى تقلص السخر، ولكن كان يلوح على وجهه بالرغم من ذلك أنه كثير الحنان رقيق القلب ، وأحيانا كنت لا ترى فى وجهه شيئا من الحزن ولا الألم وفى بعض الأحيان كان وجهه مثل السماء التى تراكمت سحائبها وتلبدت غيومها».

وبعد هذه المقدمة يسوق شكرى اعترافات صديقه المزعوم فى فصول سريعة خاطفة غزيرة المعانى والإيحاءات قوية الرؤية الشعرية، قوة تقذف فى تضاعيف الأسلوب بصورة نادرة المثال فيتحدث عن ذكرى الطفولة وظل الظهر وأزهار الشباب وشعر الألوان والروائح وسماء الأمل وأحلام الأدباء وأطوار العقيدة ولذة الحياة وعشق أصحاب الفنون والإحساس والحياة والغرور والخوف والعى ووسائل النجاح، والحياة والوحشية، والحياة والرحمة، وضعف العزيمة، وسلطان القضاء، وخواطر الانتحار، والعجب، واليأس والكذب، والخوف ، والوهم وسوء الظن والفزع من التهم،

والحذر، والخوف، والرحمة، وداء الضمير، والمجرمون والأبرياء، وأمواج النفس، والأبد فى دقيقة ،وجنون الأمانى، والضاحك الباكى، وعبث الفكر، وطعم الذل، وسخر القضاء، والإنسان والكون، وبقاء النوع وسعادة الفرد وظل الموت وخاتمة المطاف.

وفى نهاية الاعترافات نطالع خاتمة تتضمن «كلمة المؤلف فى نقد المعترف» ، وفى هذه الخاتمة يتناول شكرى بالدعابة والسخرية اللاذعة اعترافات صديقه بما فيه من نقائص ثم يطمئن القراء فى سخرية لاذعة إلى أنهم براء من مثل تلك النقائص ، بل ويزعم أن صديقه نفسه ربما كان بريئا من بعضها وذلك بحكم أنه أديب والأديب قد يجنح خياله إلي المبالغة ويقول فى ذلك :«إن من الخطأ ألا نميز بين هملت وشكسبير أو فرتر وجيته نعم إن شكسبير كان يرجع إلى نفسه فى تفهم العواطف وحركاتها ومن هذا الوجه يصح أن نقول إن فى كل فرد من أفراد قصصه شيئا منه لأن روح الأديب ليست بالروح الجامدة الصلبة بل إن فيها من المرونة ما يمكنها من التشكل بأشكال متباينة والتزيى بأزياء مختلفة ، فتارة تراها فى جسم هملت وتارة فى جسم مكبث وتارة فى جسم فولستاف وتارة فى جسم روميو أو جولييت وتارة فى جسم شيلوك».

جريدة الشعب – ٢٨ ديسمبر ١٩٥٨

ذكرى الشاعر أبى شادى

شاركت هذا الأسبوع فى ندوة أقامتها رابطة الأدب الحديث فى الجامعة الشعبية مساء ٢٣ الجارى إحياء للذكرى الأولى لوفاة شاعرنا الكبير المرحوم الدكتور أحمد زكى أبو شادى.

وإذا كان المجال لا يتسع للحديث عن تلك الموسوعة الشعرية الضخمة التى خلفها أبو شادى للشعرالعربى المعاصر

فلا أقل من أن أشير إلى تلك الظاهرة الإنسانية الأخلاقية النبيلة التى نتجت فى هذه الندوة عندما رأيت وسمعت تلاميذ وزملاء الشاعر الكبير من أمثال حسن كامل الصيرفى ومصطفى عبد اللطيف السحرتى ومختار الوكيل يشيدون بفضل أبى شادى وعبقريته وخصوبة إنتاجه فضلا عن سمو خلقه وارتفاع إنسانيته وحدة ضميره فى خدمة وطنه وأهله بل والإنسانية جمعاء ،فضلا عن الأدب ورجاله بنوع خاص حتى استطاع بفضل هذا الخلق الجميل أن يكون مدرسة شعرية كبيرة وأن يخلق حركة فنية رائعة حول مجلة «أبوللو» التى ظلت منذ سنة ١٩٣٢ حتى سنة ١٩٣٥ بمثابة مهرجان شعرى مستمر لم يشهد الشرق له مثيلا فى تاريخه الطويل.

مجلة الثورة

الرائد سلامة موسى

هذه مجموعة من مقالات الرائد سلامة موسى تمتد مما قبل الحرب العالمية الأولى إلى أواخر أيامه بعد ثورتنا الكبرى فى سنة ١٩٥٢، ومنها يتأكد معنى حياة سلامة موسى الخصبة كرائد من أكبر رواد الفكر العربى المعاصر فى ميادينه المختلفة سياسية كانت أم اجتماعية أم ثقافية.

وبمطالعة هذه المقالات سيرى القراء أن الرائد سلامة موسى إذا كان قد سبق عصره فى عدد من وثبات التحرر الفكرى والسياسى والاجتماعى الواسعة فإن الأيام قد أثبتت أن هذه الوثبات الجريئة لم تكن إلا إرهاصا بمستقبل أمتنا. فها نحن نرى اليوم عددا من هذه الوثبات الجريئة وقد انتقلت من ميدان الفكر إلى ميدان العمل، وأصبحت جزءا من واقعنا بفضل ثورتنا الأخيرة التى اهتزت لها نفس رائدنا الكبير سلامة موسى وابتهج بمبادئها وبادر إلى تأييدها بكل ما يمتلك من فكر وعاطفة، وكأنه قد أحس فيها بتحقيق لأمانيه وتنفيذ لأمانى التحرر والرقى التى كان يرجوها لوطنه وأمته.

لقد كان رائدنا الكبير سلامة موسى يعتبر موسوعة علمية كبيرة فى كافة مجالات الثقافة. وقد أنفق عمره كله فى تقريب الثقافة العالمية التحررية التقدمية من مواطنيه وإيضاح أوجه الإفادة منها والانتفاع بها، وأضاف إلى تلك الثقافة العالمية ما يتفق وبيئتنا الشرقية الخاصة ليعزز ما فيها من منابع القوة والانطلاق ويسدد ما

فيها من مواضع الضعف والتقهقر. فقد كان رحمه الله من نقاد الحياة وموجهيها على السواء. وساهم بكل ما يملك من قوة فى هدم القديم البالى الضار وتمهيد السبيل لبناء الجديد القوى النافع. وبذلك يعتبر سلامة موسى من كبار المهندسين الذين عملوا على بناء عقليتنا العصرية المتحضرة الآخذة بأسباب التخلص من القديم البالى واعتناق الجديد النافع.

وإذا كان فى هذه المجموعة الجديدة من مقالاته الرائعة ما يؤيد الدلالة الضخمة التى تمخضت عنها حياة سلامة موسى كوطنى مكافح قوى النفس وكرائد من رواد التقدم الفكرى والوطنى والاجتماعى فحسبها هذا الفضل وحسبى أن ألفت النظر هنا إلى هذه الدلالة الضخمة التى نعتز بها نحن تلاميذ سلامة موسى ومريديه ومحبيه المخلصين.

ويزيد من قدر هذه المجموعة أنها تنتقل بنا بين مجالات الحياة المختلفة التى شملها جميعا اهتمام سلامة موسى وعنايته وإخلاصه ، ولقد كان من الخير أن تستخرج هذه المجموعة من بطون الصحف والمجلات التى أنشأها سلامة موسى لتحمل رسالته مهما كلفته من جهد ذهنى وخسائر مادية، أو مجلات وصحف ساهم فى تحريرها خدمة لرسالته وريادته الفكرية لا احترافا لفن الصحافة الذى بذل سلامة موسى فى سبيله أكثر مما أخذ. وإن يكن التراث الذى خلفه جديرا بأن تعتز به أمته وتفيد منه الأجيال المتعاقبة عبر السنين، فسلامة موسى كان يسبغ على كل ما يكتبه قيمة باقية ولو نشرت كتاباته فى صحف أو مجلات سيارة. وهذا هو ثمن حياته الغالية التى افتقدناها.

مقدمة كتاب: انتصارات إنسان، مؤسسة الخانجي ١٩٦٠

سلامة موسى المفترى عليه

قرأت فى هذا الأسبوع فى مجلة الصرخة كلاما عن أستاذ الجيل سلامة موسى أحزننى حزنا بينا ،وذلك لأننى لمست فيه تهجما معيبا على هذا الأستاذ العظيم الذى ندين له جميعا بحرية الفكر وحب العلم الحديث والتطلع إلى مسايرة ركب الحضارة الإنسانية والسير دائما إلى الأمام بدلا من أن نقف أو نكتفى بالتطلع إلى الوراء لنجتر كل ما فينا من خير وشر دون غربلة ولا تخير للصالح وتخلص من الطالح.

والشيء المؤلم فى الكلام الذى قرأته هو أنه لا يناقش رأيا بذاته للأستاذ سلامة موسى، ولا يفند اتجاها مناقشا الحجة بالحجة، بل يكتفى بأن يتهم الأستاذ سلامة موسى ظلما بأنه عدو للعروبة والإسلام ، وأنه من أنصار الاستعمار وهى كلها تهم باطلة تشهد ببطلانها كتب ومقالات الأستاذ سلامة موسى جميعها، بحيث لا نظن أنها يمكن أن تصادف أذنا منصتة من أى شخص مستنير فى مصر أو البلاد العربية كلها وذلك لولا أن أستاذنا العظيم مسيحى، ونخشى أن تصادف مثل هذه التهم الباغية استماعا من بعض السذج أو غير المطلعين على آراء الأستاذ الحقيقية من المصريين أو العرب ،وبذلك يصاب هذا الأستاذ العظيم فى سمعته وكأنه لم يكفه إغفال فضله، وغمط المكانة الرفيعة التى يستحقها فى عالمنا العربى

المعاصر بفضل ما أدى ويؤدى إلى العرب ولغتهم وثقافتهم من خدمات، يكفى للدلالة عليها ذلك الأسلوب التلغرافى الذى ابتدعه سلامة موسى وأصبح يؤدى بفضله أغزر المعانى بأقل الألفاظ بينما يدبج غيره الصفحات ويرص الألفاظ دون أن يخرج القارئ منها بمحصول عقلى أو عاطفى أو أخلاقى ذى غناء.

إن الأستاذ سلامة موسى رجل قد وقف حياته على العلم والدعوة إليه وهو يعيش حياة متواضعة من إنتاج قلمه وعصارة روحه ولقد كان دائماعلى رأس الكتاب الذين يعتزون برأيهم وبكرامتهم ولا يساومون على هذا الرأى أو تلك الكرامة بمال أو جاه ولذلك عاش طول حياته فقيرا بل وأضاع فى سبيل الثقافة ونشرها ما ورثه عن آبائه من مال وفير ثم يأتى فى آخر الزمن من لا يكتفى بإغفال فضله ،بل ويجرؤ على أن يوجه إليه أقبح التهم لكى يثير حوله الظنون .إننى على ثقة من أن أستاذنا العظيم ليس فى حاجة إلى مثلى لكى يدافع عنه وهو الرجل الشجاع الماضي القلم كالسنان ولكنها كلمة حق أردت أن أبرئ بها ضميري آزاء هذا الأستاذ الذى كان من أول من فتح أذهاننا لضوء العلم الحديث ولا يزال يجاهد لكى يحملنا على أن نساير ركب الحضارة بدلا من أن نظل متخلفين معصوبى الأعين مكتفين بأن نجتر كافة رواسب الماضى كالعجماوات.

مجلة الثورة

الفيلات الفاخرة وعشش الدقى
فى صور من الماضى
رسلان البمبى

بينما كنت أقرأ على مهل وغبطة «صور من الماضى» للأديب الفنان زميل الكفاح الأستاذ رسلان البمبى، وأتهيأ للكتابة عن تلك الصور الرائعة سبقنى الموت إلى اختطاف هذا الزميل العزيز. وكم يسؤنى أننى لم أتمكن من الكتابة عن «صوره» وهو حى.

لقد عرفت المرحوم رسلان البمبى منذ ما يقرب من العشرين عاماً وعند أول عهدى بالصحافة حيث كان يعمل بقسم الترجمة فى الجريدة التى كنت أرأس تحريرها. وقد لفت نظرى بأسلوبه الفريد وحسن فهمه بل وتذوقه للغة الفرنسية التى كان يترجم عنها.

ثم رأيت أن تكون لى مجلة خاصة أتخذها منبراً لنشر الدعوة الاشتراكية التى آمنت بها وبحتميتها بعد أن نزلت من برج الجامعة إلى سفح الحياة حيث لمست عن قرب أنواعاً من الظلم والبؤس يعانيها شعبنا العريق، وبالفعل أصدرت مجلة «البعث» التى لم تعش إلا أشهراً وكأنها من أزهار الربيع- فقد أغلقها الطغيان ١٩٤٦- وقد بادر المرحوم رسلان البمبى بمعاونتى فى تحريرها. وبالرغم من أنه لم يكن رجل سياسة- إلا أنه أدرك بحسه الإنسانى المرهف أن خير ما يستطيع تقديمه لمجلتى ذات الطابع السياسى المحدد هو تلك

الصور الفنية النابضة بالحياة التى راح يلتقطها من قرى ريفنا حيناً ومن أحيائنا الشعبية البائسة فى القاهرة حينا آخر، وقد جمع رحمه الله هذه الصور وغيرها ونشرها قبل موته بأسابيع فى سلسلة الكتاب الماسى التى تصدرها الدار القومية للطباعة والنشر بعنوان «صور من الماضى».

طائر غريد

والواقع أن رسلان البمبى كان فناناً بأجمل معانى هذا اللفظ ، بل وكان ظاهرة فريدة فى حياتنا الأدبية والفنية المعاصرة، وذلك لأنه لم يكن يعى موهبته، وبالتالى لم يحاول قط استغلالها وهو فى ذلك على النقيض من الأدعياء الذين يعون ذاتهم أكثر مما ينبغى ويحاولون إملاء تلك الذات على الحياة الأدبية والفنية وقد يكون لديهم شىء من الذكاء العملى الذى يحتالون به ليقفزوا إلى أماكن ليست من حقهم ولا تؤهلهم لها موهبة حقة صادقة ، وذلك بينما كان رسلان البمبى كالطائر الغريد الذى يشدو لنفسه ولمن تسوقه المصادفة إلى سماع تغريده..

ولقد عدت إلى مجموعة صوره فوجدت فيها كل خصائص الفنان الأصيل مما يجعل من هذه الصور أعمالا فنية جميلة مرهفة تشبه فى الفنون التشكيلية ما يعرف باسم المنمنمات أو الميداليات الصغيرة الجيدة النقش، وإن زادت عليها بما تحفل به على صغرها من حركة درامية دافقة تثير الخيال وتلهب الحس.

وقد رسم رسلان البمبى فى هذه الصور لوحات تمتد من عصر «السلطة» أيام الحرب العالمية الأولى حتى بناء الفيلات الفاخرة فى

حى الدقى إلى جوار عشش الصعايدة التى يقابل بينها وبين تلك الفيلات مقابلة مثيرة رغم هدوء ألفاظها ورقة خطوطها وألوانها، فهو يلاحظ مثلا أن ضاحية الدقى أصبح يسكنها الذين لا يعرفون أن ثمة فصولا تتغير ،فالصيف والشتاء فصلان يتحدث عنهما الفقراء كما يتحدثون عن أزمة القوت والكساء ، ومن كان عنده مراوح ومدافئ ومعاطف وفراء وطيب غذاء ووفرة كساء تساوت لديه طوبة وبؤونة الحجر، فلا ينضح عرقا فى صيف ولا يحس فى شتاء رعشة المقرور.

هذا مثل بسيط

«ومع ذلك حين تقف فوق مبنى مأمورية أوقاف الجيزة وهى تتوسط الدقى وتلقى نظرة فاحصة على اليمين وأخرى عن الشمال- لا تصدق ولا يمكن أن تصدق أن هذه ضاحية واحدة. فعشش الصعايدة المجاورة ليست سوى أكواخ متداعية بناها أصحابها بأيديهم من الطوب الأخضر ليختفوا فيها من اللصوص ورجال البوليس لا أكثر ولا أقل.. كنت أذرع شارع الخديو إسماعيل شتاء غير عابئ بالبرد والمطر المتساقط فى حجم النبق، فإذا بجموع حاشدة تسد المسالك ولم تكن أيام غارات ولا أيام انتخابات ولكن هؤلاء الصعايدة قد هرعوا من مساكنهم إلى العراء مخافة أن تنقض عليهم وهم لا يشعرون».

وهذا مثل بسيط من أسلوب هذا الفنان الملئ بالعصير الشعبى من أمثال «طوبة وبؤونة الحجر» و«حجم النبق» الزاخر بالشعور الإنسانى العاطف فى غير حقد ولا مرارة ولكن فى رغبة إنسانية شريفة فى أن يتخلص البائسون من بؤسهم.

طربوش الأغا

فالمرحوم رسلان البمبى كفنان كان يستعيض عن الحقد بالدعابة الحزينة والروح الشعرية المرهفة والتعبير الشعبى اللاذع. ومع ذلك كثيراً ما كان ينجح فى إثارة الغضب وروح الثورة على الظلم والظالمين فى مثل الصور التى رسمها عن «جبال السلطة» فى سنة ١٩١٥ و«طربوش الأغا» ممثل الباشا الإقطاعى و«زفاف برعى»، ثم فى الصور الصهيونية التى رسمها للمرابين الجشعين من الصهاينة مثل صورة «الإخطبوط» و«العنكبوت» و«ميلاد عزرا» و«شالوم أو العقرب الأشقر» و«شيلوك جديد» و«الرجل ذو الألف وجه».

وإذا كنت لا أعرف للمرحوم رسلان البمبى كتاباً غير هذه «الصور» فإننى مع ذلك على ثقة من أنها ستخلد فى تراثنا الأدبى الفنى كما خلدت فى التراث الفرنسى صور «لابروبير» وبخاصة وأن جميع هذه الصور ينتظمها إحساس إنسانى موحد هو إحساس العطف من روح إنسانية فنانة نحو بؤس وشقاء أبناء هذا الشعب فى عصور الظلم الغابرة ،حتى لقد فتشت عن نصوص أدبية أدرب عليها بعض طلبتى الجامعيين فى الترجمة من العربية إلى الفرنسية فلم أجد خيراً من هذا الصور التى لا أذكر صاحبها إلا وعرانى الحزن لأن موهبته الفذة لم تتح لها فرصة الإشراق.

ويا حبذا لو التفتت إليها أجهزتنا الثقافية كالإذاعة والتليفزيون لإيصالها إلى عامة المواطنين، لعل فى ذلك بعض العزاء لروح زميلى ومحط إعجابى وتقديرى الفنان المتواضع الذى لم يعلن قط عن نفسه ، رسلان البمبى.

جريدة الجمهورية -١٩٦٣/٥/٣٠

الإنسانية تفقد ركنا كبيراً

د. محمد صقر خفاجة

تعتبر فجيعتنا فى الصديق الدكتور محمد صقر خفاجة عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة من الفواجع الكبيرة التى يصعب تعويضها ، وذلك لأنه كان ثمرة طيبة من ثمار كفاح الجامعة العربية منذ إنشائها فى سنة ١٩٤٥ من أجل تأصيل دراسة وفهم وتمثل الإنسانيات فى بلادنا كأساس متين لكل نهضة ثقافية وأدبية يرجى ازدهارها فى وطننا. وبالرغم من أن لفظة الإنسانيات يقصد بها فى الثقافة العالمية جميع الدراسات والآداب والفلسفات التى تدور حول الإنسان وتتخذه موضوعا ومركزا لها كفرد وكعضو فى مجتمع- إلا أن هذه اللفظة تنصرف فى مدلولها الفنى الدقيق إلى دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية القديمتين وما كتب فيهما من تراث إنسانى ضخم كان ولا يزال الأساس القوى للثقافة والآداب بل والحضارة العالمية كلها.

فمنذ إنشاء الدولة للجامعة المصرية فى سنة ١٩٢٥ انعقد عزم روادها الأوائل وبخاصة المرحوم أحمد لطفى السيد وأستاذنا الكبير الدكتور طه حسين على ضرورة تأصيل دراسة الإنسانيات بمعناها الدقيق فى جامعتنا حتى تقوم النهضة الفكرية والأدبية على أساس متين فى داخل الجامعة نفسها كبؤرة إشعاع كبيرة.

ومرت السنون وتخرجت أول دفعة من قسم الأدب العربى وللغات

السامية بكلية الآداب، فرأى أستاذنا الدكتور طه حسين أنه لا سبيل إلى دراسة أدبنا العربى دراسة منهجية سليمة فى ضوء ثقافة أدبية واسعة عميقة منظمة إلا بإعداد جيل جديد من الأساتذة الذين يبدأون تكوينهم العلمى بدراسة الإنسانيات اليونانية واللاتينية ولذلك وضع لمن اختارتهم الجامعة كأول مبعوثين لها للدراسة للخارج منهجا يقضى بالبدء بدراسة اللغتين اليونانية واللاتينية وآدابهما قبل التفرغ لدراسة اللغة العربية وآدابها، وكان هذا هو منهج بعثتي أنا وزميلى الكبير الدكتور على حافظ رئيس قسم الدراسات القديمة الآن بجامعة الإسكندرية .واستهوتنى فى باريس دراسة اليونانيات بينما استهوت زميلى اللاتينيات وعدنا من البعثة حيث عصف بنا الفساد والجهل والسطحية التى كانت متغلغلة فى البيئة الثقافية عندئذ، فاضطررت آسفا إلى هجر الجامعة للمقاتلة فى ميدان الحياة العامة، وإذا كان زميلى قد صمد داخل الجامعة فأكبر الظن أنه لم يستطع أن يحقق كل ما أملنا ،حتى إذا ظهر أستاذ متمكن من الجيل اللاحق وهو الدكتور محمد صقر خفاجة اطمأنت نفوسنا إلى انتصار التيار الجاد المخلص على تيار الشعوذة والإفلاس وبخاصة بعد أن آلت إليه بجدارة واستحقاق عمادة كلية الآداب ؛ فاستبشرنا خيرا وذكرنا أيام شبابنا الأولى أيام الأستاذ هنرى جريجوار وجهده العظيم فى تحبيب التراث اليونانى العميق المرهف إلى نفوس الشباب.

وكم كانت فرحتنا بالدراسات النافعة التى أخذ المرحوم الدكتور صقر ينشرها بالعربية عن الأدب اليونانى القديم مثل كتابه عن هوميروس وكتبه عن المسرح والأدب اليونانى القديم ومن النقد منذ

نشـأته الأولى عندهم وترجـمـتـه العلمـيـة الدقـيـقـة لعـدد من روائع النصوص اليونانية القديمة مثل محاورة ايون لأفلاطون وأجزاء كبيرة من مسرح أرستوفان تتضمن آراء ذلك العملاق القديم فى الشعر الدرامى والموازنة بين عمـالقـتـه وقـصـة دفنيس وكلويه .وبالرغم من جلال مـا بذل الدكتـور مـحـمـد صـقر خـفـاجة من جـهد خلال عـمره القصـيـر فى نقل التراث اليـونانى الأصـيل إلى لغـتـنا عن اليـونانيـة القديمة وتعريفنا بذلك الأدب الرائع- فإن ما كنا ننتظره ونتوقعه فعلا منه واثقين فى قدرته وأمانته وإخلاصـه قد كان أكبر وأعظم وبخاصة مشروعه الضـخم لترجمة رائعة هوميروس الكبرى الإلياذة ترجمة صحيحة أمينة دقيقة ولكن القدر حطم آمالنا باختطافه من بيننا وهو أقوى ما يكون شبابا وتصميما واجتهادا

والتخصص فى الإنسانيات لم يمنحنا فى شخص الدكتور محمد صقر خفاجة أستاذا ضليعا فى الأدب فحسب، بل منحنا أيضا أستاذا حى الضمير سمح الخلق أمينا مخلصا لرسالته وذلك لأن دراسة الإنسانيات لا تخلق أستاذا فحسب بل تخلق إنسانا أولا وقبل كل شىء بحكم أن التراث اليونانى القديم تراث أخلاقى بقدر ما هو تراث ثقافى وأدبى ، فمفكرو وأدباء اليونان القدماء لم يكونوا يكرهون شيئا قدر كرههم للغرور والإسراف الذى يسمونه فى لغتهم بالهبريس ويرون أن الآلهة نفسها لا تغتفر للإنسان مثل هذا الغرور وذلك الإسراف والصلف. ولابد أن تطهر الإنسانية من أدرانها ،وكل هن عرف فقيدنا الكريم عن قرب لابد قد لمس فيه السماحة والاعتدال والاتزان والتعقل وكبح جماح النفس وعدم الإسراف فى

فرح أو حزن وفى أمل أو طموح حتى لقد اختلفنا فى العام الماضى فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب حول جائزة النقد الأدبى واستحقاقه هو لها أو أحد زملائه الجامعيين وأسفنا لعدم إمكان توفير جائزة أخرى لنرضى الاثنين المستحقين فعلا لمثل هذه الجائزة ،وأمام عجزنا عن تدبيرها حبست الجائزة عنهما معا ، ومع ذلك لم ألق المرحوم الدكتور صقر خفاجة إلا وجدته راضيا مطمئن النفس لا ينكر على زميله هو الآخر استحقاقه لمثل هذه الجائزة وهذه هى سمة العلماء الحقيقيين، والسماحة النفسية الرائعة التى تغرسها دراسة الإنسانيات فى كل نفس خصبة سليمة التكوين أصيلة المعدن نقيته.

والشىء الذى لا شك فيه هو أن فقدنا للصديق محمد صقر خفاجة قد هد ركنا كبيرا من أركان الإنسانيات فى بلادنا وحرمنا من كفاءة ممتازة استطاعت أن تشق طريقها إلى النجاح والتأثير فى عصرنا الحاضر وفى الناشئة.

جريدة الجمهورية ١٩٦٤/١/٢٠

درينى خشبة وفجيعة الأدب فيه

كنا تسعة عشر رجلا نسير عند ظهر يوم الجمعة الماضى خلف رفات أديبنا الراحل الأستاذ درينى خشبة لنصل بتلك الرفات إلى العربة السوداء التى حملتها إلى مثواها الأخير بمركز المحلة الكبرى.

وكم أحزننى أن نكون بهذه القلة وكأن القدر قد شاء أن يبخس هذا الأديب الكبير حقه حيا وميتا، فأنا أعلم أن المرحوم درينى خشبة قد خدم الدولة ما يقرب من الأربعين عاما وترك الخدمة وهو فى الدرجة الرابعة من كادر الموظفين العنيد وبهذا لم يتجاوز معاشه الستة والثلاثين جنيها شهريا.

وإن يكن تركه للخدمة قد أطلق طاقته الإنتاجية من عقالها فزود المكتبة العربية الحديثة بعدد من الكتب المترجمة المتخصصة فى تاريخ الأدب الدرامي ونقده وفن التمثيل أصبحت اليوم من المراجع الهامة التى يستفيد منها العاملون فى حقل المسرح والأدب الدرامى من فنانين ودارسين بل ومدرسين أيضا، وذلك مثل:« فن كتابة المسرحية» لليوس اجرى، و«علم المسرحية» لألاردس نيكول، و «تاريخ المسرح» لشيلدون تشينى بأجزائه الثلاثة ، و «فى الفن المسرحى» لجوردون كريج، و«حياتى فى الفن» بجزأيه للمخرج السوفيتى الشهير ستانسلافسكي، و«تشريح المسرحية» لمارجورى بولتون.

وبالرغم من أنه قد نهض بعبء تدريس الأدب المسرحى وتاريخه

فى معهد الفنون المسرحية منذ إنشائه معهدا مسائيا فى سنة ١٩٤٤ ثم تحويله فى عهد الثورة إلى معهد نهارى إلا أن تركه للعمل فى الحكومة مكنه من جمع محاضراته وتنقيحها ودفعها إلى المطبعة لتخرج لنا فى مجلد كبير جامع تحت عنوان «أشهر المذاهب المسرحية».

وإذا أضفنا كل هذا الإنتاج الضخم الذى نهض به درينى خشبة فى السنوات الأخيرة وهو فى المعاش رغم الداء والإعياء إلى إنتاجه السابق الذى اختلس له سويعات من عمره الذى أبلته الخدمة الحكومية مثل «أساطير الحب والجمال عند الإغريق»، «الإلياذة»، «الإوديسة» ثم عشرات المقدمات الضافية التى كتبها لعدد من مسرحيات سلسلة روائع المسرح ومساهمته فى تلك السلسلة بالترجمة حينا والمراجعة حينا آخر أدركنا عظمة اليد التى أسداها هذا الزميل الراحل إلى حركتنا الأدبية المعاصرة بعامة وإلى ثقافتنا الدرامية والفنية بخاصة.

وبينما كنت أسير حزينا كاسف البال خلف نعش هذا الصديق الراحل أخذت أوازن رغما عنى بين ما خلفه لهذا الوطن من إنتاج ثقافى ضخم وما أداه إلى أجيال متلاحقة من خدمات فى التدريس والكتابة وبين ما أصاب من حطام الحياة الزائلة فيحز فى نفسى الألم وأكاد أتهم نفسى وأتهم المجتمع كله بأننا قد تآمرنا على حياته عندما شققنا عليه حتى بعد بلوغه سن التقاعد والراحة الضرورية فأرهقناه بالعمل.

وإذا كان الجزاء على قدر المسئولية والمثوبة على قدر العمل فمن

المؤكد أن المرحوم دريني خشبة قد استحق في حياته أكثر مما أصاب ، وهو وأسرته يستحقان بعد موته لا ما فاته وهو حي فحسب بل وما تستحقه ذكراه العاطرة من إكرام الدولة لتلك الذكرى ورعايتها لأسرته التي نكبت فيه.

جريدة الجمهورية - ١٥ يوليو ١٩٦٤

توفيق الحكيم وأدبه

يعتبر توفيق الحكيم من أوسع كتاب العرب المعاصرين شهرة، وأغزرهم إنتاجا، وذلك بفضل حماسته وإخلاصه لفن الأدب منذ حداثته الأولى حتى يومنا هذا، وقد ترجم لتوفيق الحكيم عدد من القصص والمسرحيات إلى اللغات الأجنبية المختلفة كالإنجليزية والفرنسية والروسية والسويدية والإيطالية وغيرها.

وبمراجعة تاريخ حياة توفيق الحكيم المتصل اتصالا وثيقا بإنتاجه الأدبى يتضح لنا أن نزعته الفنية قد استيقظت فى نفسه منذ حداثته الأولى وغالبت كافة العقبات التى قامت فى سبيلها وظلت تكافح حتى استكملت كافة مقوماتها. فتوفيق الحكيم ولد بالإسكندرية فى سنة ١٩٠٢ من أم تركية الأصل صارمة متنزمتة، ومن أب مصرى كان يعمل وكيلا للنائب العام ثم قاضيا فمستشارا، وكانت هذه الأسرة ميسورة الحال تحرص على ان تنشئ ابنها تنشئة علمية، فحرصت على أن تعده لكى يتبع خطوات أبيه فى السلك القضائى الذى كان ولا يزال يتمتع بوجاهة اجتماعية ، خاصة فى مجتمعنا العربى ،ولذلك التحق توفيق الحكيم بعد إتمام تعليمه العام بمدرسة الحقوق وحصل على ليسانس القانون فى سنة ١٩٢٤. ولكن توفيق الحكيم لم يكن شغوفا بدراسة القانون قدر شغفه بالفنون الأدبية وبخاصة فن المسرح وكان أبواه يعترضان على هذا الاتجاه أعنف اعتراض ،

ولكنه لم يأبه باعتراضهما وبخاصة بعد أن تحرر من رقابة والديه القاسية بانتقاله إلى القاهرة حيث توجد مدرسة الحقوق وإقامته مع بعض زملائه الطلبة واشتراكه وإياهم فى الحركة الوطنية الكبيرة التى شبت فى مصر سنة ١٩١٩ مطالبة بإلغاء الحماية البريطانية على مصر وإعلان استقلالها وتقرير الحكم النيابى الديمقراطى فيها. وقد صور توفيق الحكيم هذه المرحلة من حياته وحياة جيله فى قصته الكبيرة «عودة الروح» التى نشرت سنة ١٩٣٣، ومع ذلك فإن القصة لم تكن الفن الأدبى الذى استهوى توفيق الحكيم فى أول الأمر وفى حداثته المبكرة، بل كانت المسرحية التى اخذ يكتبها منذ سنة ١٩١٨. وكان الاتجاه الأدبى والفنى عندئذ وفى ظل الروح الوطنية يدعو إلى ربط الأدب فى الحياة ومشاكلها الراهنة أو الترويح عن الجمهور من هموم العصر، ولذلك نرى توفيق الحكيم يبدأ إنتاجه الأدبى بمسرحية ساخرة عن الإنجليز المحتلين بعنوان «الضيف الثقيل». وفى نفس الوقت نرى الحكيم يجارى ذوق العصر وحاجاته النفسية فيكتب مسرحية من نوع الأوبريت باسم « على بابا»، وقد كتب بعض أجزائها فى صورة زجل عامى، وقد مثلت كل هذه المسرحيات فرقة زكى عكاشة بمسرح حديقة الأزبكية الذى كان قد أنشئ عندئذ بفضل رعاية الوطنى الاقتصادى الكبير محمد طلعت حرب باشا مؤسس بنك مصر.

وهال والدى توفيق الحكيم إصراره على الاشتغال بالمسرح واتصالاته بالأوساط الفنية والمسرحية التى كان المجتمع المحافظ ينظر إليها عندئذ نظرة لا تخلو من احتقار، فلم ير الوالدان خيرا

لابنهما من أن يبعداه عن هذا الوسط بل عن مصر كلها بإرساله إلى باريس لمواصلة دراسة القانون بجامعتها والحصول على درجة الدكتوراه .ولكن توفيق الحكيم خيب ظن والديه هذه المرة أيضا، فبدلا من أن يدرس القانون انصرف إلى الأدب والمسرح وخالط الأوساط الأدبية ، والفنية في باريس على نحو ما نطالع في كتابه «عصفور من الشرق» و «زهرة العمر»، وخلال تلك الفترة اتصل عن قرب بفنون الأدب العالمية وبخاصة الأدب الفرنسي، فساقه طموحه الأدبي المستيقظ نحو الارتفاع بأدبه عن مستوى الملابسات السياسية والاجتماعية العارضة وعن مطالب جمهوره العاجلة لكي يتجه نحو الأدب الإنساني العام الذي تمثل في مسرحياته الذهنية التي تعتبر نقطة الانطلاق في مجده الأدبي.

وأحس والداه بأن ابنهما لم يغير في باريس الاتجاه الذي سلكه في مصر فاستدعياه في سنة ١٩٢٧ أي بعد ثلاث سنوات فقط من إقامته في باريس ،وعمل توفيق الحكيم بعد عودته من باريس وكيلا للنائب العام بالمحاكم المختلطة بالإسكندرية لمدة عامين من سنة ١٩٢٧ إلى ١٩٢٩، وفي تلك الفترة لم يتح للحكيم الاتصال بالشعب المصري عن قرب وتعرف مشاكله باعتبار أن عمله كان قاصرا على الجاليات الأجنبية المستوطنة في مصر والمتمتعة بالامتيازات التي جعلتها لا تخضع للقوانين والنظم الأهلية بل تخضع لما كان يسمى بنظام القضاء المختلط، وإنما استطاع توفيق الحكيم أن يتصل بالشعب المصري ومشاكله بعد أن انتقل سنة ١٩٢٩ من القضاء المختلط إلى القضاء الأهلي الذي عمل فيه لمدة أربعة أعوام وكيلا

للنائب العام فى مدن طنطا ودمنهور ودسوق وفرسكور. وخلال هذه الفترة جمع الملاحظات التى استخدمها فى كتابة كتاب يعتبر من خير كتبه وهو «يوميات نائب فى الأرياف» الذى صدر فى سنة ١٩٣٧ فى صورة قصة تجمع ملاحظاته عن الشعب المصرى ومشاكله خلال فترة عمله وكيلا للنائب العام فى القضاء الأهلى ، كما أنه استخدم الملاحظات التى جمعها فى نفس الفترة فى كتاب آخر له صدر سنة ١٩٥٣ باسم «ذكريات فى الفن والعدالة».

وفى سنة ١٩٣٤ انتقل توفيق الحكيم من السلك القضائى إلى وزارة المعارف العمومية ليعمل مديرا للتحقيقات ،وظل يعمل فى هذه الوزارة حتى نقل منها إلى وزارة الشؤون الاجتماعية عند إنشائها فى سنة ١٩٣٩، وتولى فى هذه الوزارة وظيفة مدير مصلحة الإرشاد الاجتماعى ، ولكنه طوال عمله موظفا فى الحكومة كان أكثر انشغالا بالأدب وشؤونه منه بالوظائف وأعبائها ،حتى لنراه يحاكم تأديبيا لإهماله شؤون الوظيفة ويحكم عليه بخصم نصف شهر من مرتبه ، وفى النهاية يستقيل من وظيفته الحكومية سنة ١٩٤٣ ليعمل فى الصحافة بجريدة أخبار اليوم التى نشر بها سلسلة من المسرحيات الاجتماعية التى يخيل إلينا أن مقتضيات الصحافة قد دفعته إليها دفعا وظل توفيق الحكيم يعمل فى هذه الصحيفة حتى عاد إلى الحكومة فى سنة ١٩٥١ مديرا عاما لدار الكتب. وظل يشغل هذه الوظيفة حتى أنشئ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب فى سنة ١٩٥٦ فعين عضوا دائما متفرغا فيه بدرجة وكيل وزارة، حتى كان عام ١٩٥٩ .حيث عين مندوبا مقيما للجمهورية العربية المتحدة لدى «اليونسكو» فى باريس حيث يقيم الآن.

وعلى الرغم من أن توفيق الحكيم كان قد عرف فى المجتمع المصرى والعربى لمدة طويلة بأنه عدو المرأة فإنه قد انتهى بالزواج فى سنة ١٩٤٦ وأصبح له ولد وبنت.

وبالرغم من أن لتوفيق الحكيم عددا من القصص والمسرحيات الاجتماعية إلا أنه قد عرف بنوع خاص بمسرحياته الذهنية مثل «أهل الكهف» و«شهر زاد» و «بيجماليون» و «أوديب ملكا» و «سليمان الحكيم» و «عودة الشباب»، وهى مسرحيات قد لا تصيب نجاحا جماهيريا بحكم طابعها الذهني وهدوء الحركة الدرامية فيها ، ولكنها تعالج مشاكل إنسانية عامة ، وكثيرا ما يبني توفيق الحكيم مسرحياته تلك على فرض ذهنى يدرس فى المسرحية نتائجه ليستخلص عن طريق المفهوم العكسى حقيقة عامة من حقائق الحياة، فهو مثلا يبني مسرحية «أهل الكهف» على افتراض بعث أهل الكهف الثلاثة من سباتهم العميق الذى استغرق ثلاثة قرون ليدرس بعد ذلك إمكان استئنافهم الحياة، وينتهى من دراسته إلى أن استئنافهم للحياة مستحيل لأن الحياة ليست جوهرا فى ذاته، بل هى مجموعة الروابط التى تربطنا بالناس والأشياء. ،فإذا تقطعت هذه الروابط بحكم الزمن ذبلت تلك الحياة وماتت فى أجسامنا، وهذا هو ما حدث فى المسرحية لأهل الكهف إذ رأيناهم يعودون فى النهاية إلى كهفهم ليستأنفوا سباتهم أو ليموتوا بعد أن تبين أحدهم أنه قد فقد إلى غير رجعة قطيع غنمه وفقد الآخر بيته وزوجته وولده ورأى سوقا للسلاح تقوم مقام بيته الحبيب ، وأما ثالثهم فقد عثر بفتاة تحمل اسم خطيبته القديمة برسكا ولكنه لم يكد يتبين أن برسكا هذه ليست إلا حفيدة لخطيبته القديمة الحبيبة حتى عاد هو الآخر إلى كهفه بالرغم

من نجاحه فى جذب برسكا الجديدة إليه حتى لنراها تتبعه إلى الكهف، وكذلك الأمر فى مسرحية «عودة الشباب» التى يدرس فيها عودة شيخ من الباشاوات إلى شبابه وما يترتب على ذلك من فقد مركزه الاجتماعى الذى وصل إليه بعد جهد طويل، ومن تنكر زوجته العجوز له ثم رفض البنك إعطاءه شيئا من أمواله المدخرة فيه بعد أن تغيرت شخصيته برجوعه شابا، وفى النهاية لا يجد الحكيم مخرجا من كل هذه المآزق إلا بأن ينبئنا بأن كل ما حدث لم يكن إلا حلما ارتآه الشيخ فى نومه ، وها هو يصحو فى نهاية المسرحية فيجد نفسه شيخا كما كان، مما يوحى بأن توفيق الحكيم يؤمن بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان وأنه لا سبيل للبشر ولا جدوى عليهم من مغالبة الزمن ومحاولة العودة به إلى الوراء، وتلك نظرة إلى الحياة يختلف فى شأنها النقاد فمنهم من يرى فيها نظرة سلبية انهزامية ومنهم من يرى فيها نظرة حكيمة معتدلة تتمشى مع واقع الحياة ومنطقها، ولكن أحدا لا يستطيع أن ينكر على الحكيم محاولاته الجادة فى استكناه حقيقة الحياة ومنطقها فى مسرحه الذهنى، ومن الممكن أن نرجع مسرح الحكيم الاجتماعى إلى نفس النظرة الفلسفية للحياة وهى النظرة التى حاول الحكيم استخلاص أسسها النظرية فى الكتاب الذى نشره بعنوان «التعادلية»، وهى نظرة حملته على أن يحاول الكشف عن حقائق حياتنا الاجتماعية وإبراز أسرارها إلى الضوء دون أية نظرة توجيهية هادفة ، ترسم أو توحى بمنهج إيجابى محدد يمكن أن ينتهجه مجتمعنا العربى فى معالجة أدوائه الاجتماعية المزمنة.

نسمات من الشعر..

حسين عفيف

وصلنى كتاب جديد بعنوان «الأرغن» وتحته «تأليف حسين عفيف المحامى» وانشقت فى روحى ذكريات الشباب أيام كنت لا أزال طالبا بجامعة القاهرة عند بدء إنشائها، حيث وقعت فى يدى كتب مماثلة لحسين عفيف المحامى ولسوء الحظ فقدت تلك الكتب التى أشجت شبابى ولم أعد أعرف لها مكانا ، ولكن ذاكرتى العاطفية العنيدة ظلت تذكر رغم السنين الطويلة حسين عفيف المحامى الذى علمت فيما بعد أنه دخل القضاء ووصل إلى منصب مستشار ولم يعد يصدر كتبا كالتى عرفتها فى الشباب.

وبالرغم من فقدانى لكتبه- إلا أننى ظللت طوال حياتى لا أذكر الشعر الصافى المنثور لتلاميذى فى الجامعات والمعاهد إلا ذكرت اسم حسين عفيف مع اسم جبران خليل جبران، ولذلك لم يكد يصلنى « الأرغن» حتى هشت له نفسى وتفتح قلبى وكأننى قد عدت إلى مرحلة الشباب الأول أو التقيت بصديق قديم عزيز، بعد طول غيابه بالرغم من أننى لم أر فى حياتى للأسف شخص حسين عفيف.

لقد كنت فى صدر شبابى أعتز وأطرب لشعر جبران خليل جبران المنثور بعد أن وصلنى به وبأدباء المهجر بوجه عام كتاب صغير

متواضع ضم مختارات من إنتاجهم اسمه «بلاغة العرب فى القرن العشرين» للأستاذ محيى الدين عبد الحميد حتى عثرت على بعض كتب حسين عفيف المماثلة ففرحت بها أيما فرح وكنت أحس عندئذ بأن هذا الشعر المنثور يعتبر من أجمل الشعر رغم أنه غير منظوم كغيره من الشعر العربى التقليدى.

ولكننى كنت عاجزا عندئذ عن تبرير اعتبارى له شعرا رغم خلوه من النظم حتى تقدمت بى السنون واتسعت قراءاتي فعثرت على ما يبرر إحساسى على أساس فكرى سليم ، عندما رأيت أرسطو كبير فلاسفة البشر يؤكد فى كتابه فن الشعر أن النظم ليس هو الذى يميز الشعر عن النثر، وإنما الذى يميز الشعر عن النثر هو مضمونه والملكات النفسية التى يصدر عنها كل منهما، ولكى يوضح فكرته يعقد مقارنة بين مسرحية الشاعر اليونانى القديم إيسكيلوس المسماة «الفرس» وبين ما كتبه نثرا المؤرخ اليونانى القديم هيرودوت تسجيلا لأحداث ومعارك حرب الفرس ضد اليونان الأقدمين ،ويقول إنه قد كان من الممكن أن يكتب هيرودوت تاريخه نظما ومع ذلك لا يمكن اعتباره شعرا لاختلاف مضمونه التسجيلى عن مضمون مسرحية إيسكيلوس الشعرى المثال العاطفى المثير عن نفس الموضوع، ثم قرأت ما كتبه عدد من النقادوالشعراء العالميين عما يسمونه بالشعر الصافى، ولهم فيه نظرية تقوم على إيمانهم بأن الشعر يستطيع أن يستقل بأسلوبه ومضمونه الشعريين وبالملكات الخاصة الخالقة له عن غيره من الفنون ليقوم بذاته دون حاجة إلى فن آخر يكسبه صفته المميزة كفن الموسيقى .وبالرغم من أننى لم

أستطع أن أنحاز بإحساسي وتفكيري انحيازا تاما إلي نظريتي أرسطو وأنصار الشعر الصافي، وبالرغم من أنني لا أزال أعتبر موسيقى الشعر غير دخيلة عليه بل وسيلة أصيلة نابعة من اللغة ذاتها للتعبير عما تعجز دلالات الألفاظ التقريرية عن التعبير عنه من ظلال المعاني وألوانها- أقول- إنني بالرغم من كل ذلك وجدتني لا أزال أطرب لذوي المواهب الشعرية الحقة من أمثال حسين عفيف عندما ينثر في «الأرغن» خواطر نفسه وهمسات روحه وخلاصة تجارب حياته المديدة - بإذن الله في شعر منثور تهزني خلجاته وتثملني لمحاته الإنسانية الصادقة .ويخيل إلى أنني أقرأ اليوم في «الأرغن» أكثر مما كنت أقرأ في كتبه القديمة، كتب حسين عفيف المحامي ، إذ أضاف إلى موهبته الشعرية وحياته العاطفية الزاخرة حكمة الحياة في مثل قوله في «الأرغن» :«عندما كنت صغيرا لم أكن أطرب إلا الذة الأخذ ..أخذ الهدايا والطعام من أمي وأبي. ولما كبرت شعرت إلى جانب لذة الأخذ بلذة العطاء، فكنت اطرب لخير أقدمه طربي لخير أناله فلما تقدم بي السن لم أعد أحفل إلا بلذة العطاء فحرمت نفسي وأعطيت ما معي» أو قوله وهو الرجل الذي عرك الحياة وعرف شرها وخيرها .. سرح باللهو شهواتك حذر أن تعتصم في نفسك وقد انقلبت مردة، وستكون بذلك إذ تمرح تتعبد، لأن الخلاص منها عبادة ، ولا تحسبن الزهد تقي ، فأخو الحرمان كم يخلو إلى شيطانه». وإن يكن هذا الصديق القديم العزيز قد أشجاني وهز أعماقي عندما اختتم أرغنه بقوله: «اليوم ينتهي تغريدي، فاذكروني إذا رجعتم غدا أغاريدي .حان وقت الودا ع فسلام ولا

تترقبونى فى مواعيدى أنا ذاهب وشيكا مع الرياح خلا أنفاس ستحيا فى أناشيدى باقيات أبدا على الدهر مرددات فى مسمع الزمان تغريدى، فاذكرونى كلما شجتكم أنغامها طربا، وبالدموع التى تبكيكم بها ابكونى ومن زهور الرياض ضعوا فوق قبرى ولليتامى قدموا القربان وقولوا تلك الزهور يا شاعرنا فى دنياك أحببت ، والقرابين على روحك صدقة اعترافا من لدنا بجميلك وتحية منا لذكراك».

وكم هى رائعة ومشجية تلك الأمنية التى يختتم بها حسين عفيف المستشار «أرغنه» «وددت وأنا فى سبات الموت لو أحلم مرة بالحياة».

براعم جديدة

وفيما أنا مشجو بأرغن الصديق القديم حسين عفيف، جاءتنى طالبة صغيرة حية فى الثامنة عشرة فى عمرها تطلب منى دقائق تطلعنى فيها على إنتاجها الأدبى من قصص وأشعار، فاقتنصت هذه الفرصة لأؤكد التهمة التى يتهمنى بها الأخ كامل الشناوى من أننى أحنو كأب على الشباب وأعطيت الفتاة موعدا بمنزلى حيث التقينا وسمعت منها قصة قصيرة قوية التصوير والإثارة ، ثم أسمعتنى بعض شعرها فراقنى ما فيه من نضج فى الشعور والتأمل وجمال التصوير رغم حداثة سن صاحبته الآنسة وفاء وجدى وهأنا أبرز إحساسى بهذه الفقرة الصغيرة من قصيدتها «بعد عامين» حيث تقول:

دقت الأجراس تنبى أن عاما قد مضى

مر كالأطياف

كالأحلام

ومضى ينثر فى النفس شجونه

مر عام.. والأمانى الجميلة

كلها نامت على صدر الزمان

كلها نامت

كطفل راكد الآمال مسلوب الأمان.

وهكذا استروحت هذا الأسبوع بنسمات من الشعر حينما حرك، ارغن حسين عفيف ذكريات شبابى المسكر وخلطها بحكمة السنين وتجارب الحياة وحينما نفذ إلى روحى عطر البراعم من قصيدة الآنسة وفاء وجدى.

جريدة الجمهورية

١٩٦٢/١/١٧

مى زيادة.. والنثر الشعرى

عند ظهر يوم الأحد ١٩ أكتوبر سنة ١٩٤١، توفيت الأديبة اللامعة الآنسة مى زيادة. وفى حفل تأبينها الذى أقيم عندئذ ، وقف الدكتور طه حسين ليستهل تأبينه لها بأبيات بالغة الرقة للشاعرالعربى القديم ذى الرمة وهى قوله:

خليلى عدا حاجتى من هواكما

ومن ذا يواسى النفس إلا خليلها

ألما بمى قبل أن تطرح النوى

بنا مطرحا أو قبل بين يزيلها

فإلا يكن إلا تعلل ساعة

قليلا، فإنى نافع لى قليلها

وفى أثناء حياتها شغلت بعض الأسفار شاعرنا القاهرى العذب إسماعيل باشا صبرى عن حضور الندوة التى كانت تعقد فى بيتها يوم الثلاثاء من كل أسبوع، فأرسل إليها ببيتين بالغى الرقة يقول فيهما:

روحى على دور بعض الحى حائمة

كظامئ الطير تواقا إلى الماء

إن لم أمتع بمى ناظرى غدا

أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

فـمن هـى هذه الأديبـة اللامـعـة التى اسـتـهـوت القلوب، وأثملت الأرواح بأدبـهـا الإنسـانـى المرهف ؟ هـى الآنسـة مـارى بنت إليـاس زيادة اللبنانى.

وقد ولدت هذه الأديبة الكبيرة فى فلسطين، وفى مدينة الناصرة بلد السيد المسيح ولا نعلم بالدقة تاريخ ميلادها، ولكن من المؤكد أنه بين سنتى ١٨٨٥و ١٨٨٦ ميلادية. وأبوها إلياس زيادة اللبنانى من قرية شحتول من قضاء كسروان. وأمها فلسطينية الأصل. وترعرعت مي حتى سن الرابعة عشر فى الناصرة التى أتمت فيها دروسها الأولية. وكان أبوها وأمها يعتنقان فى النصرانية مذهبين مختلفين. فالأول مارونى، والثانية أورثوذكسية. وقد تعزو مي تسامحها الدينى، ومجافاتها للتعصب إلى ذلك التباين الذى كان يبين الأب والأم فى مذهبهما الدينى.

ولما انتقلت أسرة إلياس زيادة إلى كسروان ألحقت الطفلة مارى زيادة بمدرسة للراهبات الأجنبيات بعين طورة فى سنة ١٨٩٩ ميلادية. وفى تلك المدرسة الدينية التى تحذق أساليب التربية والتعليم فيها راهبات منقطعات للعلم والعبادة، أتقنت مى اللغة الفرنسية قراءة وكتابة أكثر من إتقانها للغة العربية. كما أخذت تتعلم غيرها من اللغات الأجنبية حيت قيل إنها كانت تجيد تسع لغات. وأكد أحد أصدقائها الحميمين وهو الأستاذ عباس العقاد أنها كانت تجيد على الأقل خمس لغات. وظلت مى فى هذه المدرسة حتى سنة ١٩٠٤ عندما ودعت عين طورة لتعود إلى الناصرة مع والديها، حيث ظلت تقيم حتى سنة ١٩١١ إذ هاجرت مع والديها إلى مصر التى أصدر

فيها والدها جريدة «المحروسة» وظل يعمل فى الصحافة حتى توفى هو ووالدتها قبل وفاة مى بفترة قصيرة وكانت مى فى صدر شبابها، ومنذ فترة إقامتها فى عين طورة تكتب باللغة الفرنسية شعرا ونثرا، وكان أول ما نشرته ديوان « أزاهير حلم» الذى لم يترجم إلى العربية إلا بعد وفاتها، وقد ضم هذا الديوان عددا من القصائد الرومانسية النزعة كما ضم مذكرات يومية أو على الأصح خواطر يومية نشرتها مى باسم «يوميات عائدة». وقد نسب الكتاب كله إلى «إيزيس كوبيا»، وهو اسم رمزى لمى، استبدلت فيه اسمها الأصلى مارى باسم إيزيس بحكم الشبه بين عذراء مصر القديمة ، وعذراء المسيحية أما لفظة كوبيا فلفظة لاتينية قديمة معناها «زيادة»، وهو اسم أسرة مى.

وقصائد هذا الديوان كما يقول أنطون الجميل «أزهار عطرية» نبتت فى أرض الأحلام الجميلة، وهى مهداة إلى «لامارتين شاعر القلوب الحزينة» وهذه الروح المتألمة ترف على كل صفحة من صفحاتها وتجعل الكاتبة تقول فى قصيدة «هل هى شاعرة» ما معناه: البكاء والرأفة والحب والألم، هذه هى صفات الشاعر.

«وقد ظهر من الموضوعات التى طرقتها الكاتبة أنها لا تصف إلا ما ترى ولا تعبر إلا عما تشعر به فجاءت قصائدها صورة حقيقية لما يشغل فكرها ويحرك قلبها ولذلك أنت تشاركها عند تلاوة أشعارها فى هذه العواطف أيا كان رأيك فى القالب الذى سبكتها فيه ، فلا تتمالك من أن تصبو معها إلى مصر ونيلها وآثارها وسهولها، وتحن معها إلى لبنان وجباله وأوديته، وإذا كانت إيزيس كوبيا شاعرة فى

نظمها فإنها أشعر منها فى تلك الصفحات النثرية التى ختمت بها أزهار أحلامها حيث لم تعد مقيدة بقيود القافية والوزن وكثيرا ما تكون الأزهار المنثورة أجمل من الأزهار المضفورة».

والعوامل الأساسية التى تكونت منها شخصية مي الأدبية هى العوامل التى سيطرت على حياتها أثناء شبابها الغض فقد ولدت فى الناصرة قرية السيد المسيح حيث الدين المسيحى السمح وذكرياته النافذة، ثم انتقلت إلى عين طورة بمدرسة للراهبات عمقت فى نفسها تلك المشاعر الدينية النافذة ،ووسط جلال الطبيعة وجمالها فى جبل لبنان ازداد شعورها الدينى توقدا وهى فى فترة اليفاعة التى تلتهب فيها النفس بمشاعر الدين، ومكنتها معرفتها باللغات الأجنبية من تغذية عاطفتها المشبوبة بأشعار الرومانسيين الفرنسيين والإنجليز وها هى مقطوعة من ديوان «أزهار حلم» تصور الجو الذى عاشت فيه فى عين طورة: «نحن الآن فى منتصف الساعة الحادية عشرة صباحا، وأنا وحدى فى الغابة منذ ساعتين وحدى مع بايرون شاعر العنف والعذوبة ، الذى يضعه الإنجليز فى المرتبة الرابعة من شعرائهم، مع أنه يستحق أن يكون الأول بعد شكسبير أكان بيرون يدرى؟.. أكان يدرى أن فتاة لبنانية ستبقى معه أو مع ما تبقى منه ساعات الوحدة الطويلة فى غابات لبنان الجميلة؟! يا لهذه الأصوات الشوادى!.. ما لأصوات الصيف الساطع على هذه القمم تبدو من البر متوغلة فى تيه الأثير الذى لا يدرك ولا يحد.. يا للساعات الحلوة التى تنقضى خالية متريثة، وحاملة مفعمة طليقة من قيود الاجتماع ومقتضيات العالم.. بأى شوق.. بأى شوق أنتظرها طول الشتاء.. يا

هذه البرية.. يا هذا الخلاء فى لبنان.

إنى لألقى على كل صخر من صخوره ، تحت كل شجرة من أشجاره.. فى كل مذهب من مذاهب أوديتك نثرات من كيانى .. أنثر الابتسامات والزفرات والأحلام والأغانى، والآمال والإعجاب والتأمل».

ففى هذه المقطوعة تتجمع العناصر الثلاثة التى أشرنا إليها: شعور دينى مرهف، وخلوة وسط مشاهد الطبيعة الجميلة الجليلة، وأشعار بيرون وأمثاله من الرومانسيين تزيد عاطفة الفتاة اتقادا، وتنطقها بهذا الشعر الرومانسى المرهف.

وفى «يوميات عائدة» تجد نفس الملامح الروحية فتحت يوم الاربعاء أول مارس كتبت تقول: «قد بدأ شهر مارس.. ما أسرع مرور الزمن!. إن أنا شعرت بالزمن متعجلا كل هذا التعجل فى حداثتى، فماذا عسى أن يكون عندما أتقدم أعواما أخرى؟.. وبعدئذ.. بعدئذ عندما أمسى عجوزا.

عجوز.. أنا؟ أترانى أصل إلى ذلك العمر؟ وكيف يكون المرء عجوزا؟! كيف يشعر عندئذ وكيف يفكر؟.. يخيل إلى أننى سأرحل قبل ذلك.. وأن الموت سيحملنى غضة الشباب، ويطير بى إلى حيث تسبح الملائكة، وتلبث الأزهار ناضرة.

أشتاق إلى الموت فى هذه الأيام، ذلك لأنى لا أفهم الحياة التى قال عنها المرشد إنها مشكلة المشاكل. وأنها سريعة سرعة السهم المنطلق فى الفضاء؟.. ما معنى هذه التقلبات وهذه الحاجات وهذه الأنظمة المتولدة أبدا هنا وهناك فى وفىَّ غيرى، ونحن نراها شيئا

طبيعيا،وإن آلمتنا وأسخطتنا.. انتقلت من تأمل إلى تأمل حتى انتقلت إلى فكرة الموت. كم ذا سمعت أن هذه الفكرة كانت تعزية القديسين ورجاء لهم، فما كنت أحاول أن أفهم ، بل كنت أنصرف عن ذلك بسرعة لأطمئن وأستريح ، غير أنى اليوم انتشرت فى نفسى فكرة الموت مع لذة الشعور بها انتشار الألحان مع الأرغن العازف.. هذه تلك النظرة الجافية التى حملتنى على البكاء، وأحزنتنى طول النهار... كيف أتخلص من شعورى؟.. كيف أصير صخرة؟.. حدثينى أيتها الحجارة العسيرة كيف صرت حجارة».

وفى يوم الخميس التالى ٢ مارس مساء كتبت تقول: «وانتشر شذى البكور فى فضاء المعبد، عندئذ جثوت على سريرى، وطلبت الموت، لا جبنا ولا ضعفا، بل شوقا إلى السماء الزرقاء حيث الطهر والنقاوة والكمال والجمال. ومازال هذا الشوق فى حتى الساعة، ساعة الغروب».

وفى يوم الجمعة التالى ٣ مارس كتبت: «أف لى إنى خائرة العزم: أنا التى أطلب الموت. وأريد أن أتحلى بالفضيلة والتقوى، ما عرضت لى معاكسة صغيرة إلا تمرد فى الكبرياء وحب الذات والغرور والنزق، وتحالفت جميع عواطفى الشريرة على هذا الفعل الصغير من أفعال التواضع والتجلد، فإذا بى أشكو وأتذمر ، وأبكى: إلهى إلهى! متى أصير فاضلة ، وأحتمل صابرة كتوما؟» .

وفى يوم الثلاثاء ٧ مارس صباحا كتبت تقول: «هذا الطقس يلقى على نفسى غشاء من الاكتئاب والتخدر عندما يكون الجو رماديا، كذلك يكون وجدانى، إنى أوثر الشمس بازغة تبهج العالم والسماء،

أوثرها زرقاء صافية فى زرقتها السنية. والنور أن يغذى النبات ويحيى الأزهار ، أفضل عندى من أن أرى الرياحين منكسة الرؤوس والورود ذابلة الكئوس تحت دفق المطر».

وفى يوم الأحد ١٢ مارس مساء كتبت تحت عنوان: «أومن بإله واحد»: «نعم يا إلهى.. أومن بأنك واحد لا إله إلا أنت، وأنك أنت خلقتنا وأنك صالح، وأن الحياة جميلة.

هذا يوم بهى.. الموسيقى فى هذا المساء على أبدع ما عهدت.. لابد أن تكون فى السماء جوقة موسيقية بارعة تعزف من الألحان الربانية ما لم تسمعه من هذه الأرض أذن ولم يخطر شىء منه على قلب بشر

إن الموسيقى لتخاطبنى بلغة ليس أقرب منها إلى إدراكى وعواطفى. إنها تنيلني أجنحة ، وتطير بى إلى عوالم لا يطرقها غيرها. أشكرك اللهم لأنك فطرتنى على حب الموسيقى والجمال».

من كل هذه المقطوعات الشعرية واليوميات النثرية التى تتحدث فيها مي عن نفسها، وإن نسبتها إلى عائدة نستطيع أن نلتقط الملامح الروحية لهذه الكاتبة المرهفة وهى ملامح ظلت تلازمها طوال حياتها رغم اتساع تجاربها فى الحياة بعد ذلك، وكثرة مطالعاتها فى الآداب العالمية المختلفة، ثم اتخاذها العربية أداة للكتابة.

فمنذ أن وصلت مى مع والديها إلى مصر أخذت تحس بحاجة قوية إلى إتقان اللغة العربية واتخاذها أداة للتعبير. وكان لها ما أرادت حتى أصبحت من أمهر كتابها المعاصرين فى حسن استخدام اللغة العربية السلسة السليمة للتعبير عن خوالج النفس وعواطفها

الحارة.

وربما كانت مى أول أديبة عربية جمعت بين النشأة الشرقية الروحانية الخالصة ، والثقافة الغربية الواسعة ، مما جعل منها أنموذجا فريدا للفتاة العربية التى تحافظ على تقاليد الشرق وروحانيته ، ومع ذلك تعب من الثقافة الغربية ما استطاعت. وبفضل هذه الصفات استطاعت مى أن تجعل من دارها بالقاهرة ندوة أدبية رفيعة تذكرنا بندوة السيدة سكينة بنت الحسين ابن على فى صدر الإسلام وبندوات كبار السيدات فى الغرب وفى تلك الندوة كان يلتقى شبلى شميل ويعقوب صروف وإسماعيل باشا صبرى وولى الدين يكن والعقاد ومنصور فهمى وطه حسين وكثيرون غيرهم، حيث كانوا يناقشون قضايا الفكر والأدب، ويستمعون أحيانا إلى نغمات الموسيقى الشجية التى كانت تعزفها الآنسة مي فتثير فى الجو عطر الروح واطمئنان النفس وانشراحها.

وأجادت مي اللغة العربية ويقول المعاصرون إن أستاذ الجيل احمد لطفى السيد كان معلمها الأول فى اللغة العربية، وأخذت مى تختلف إلى الجامعة المصرية الأهلية لتستكمل ثقافتها العربية، وتشارك فى ندواتها ومناظراتها، كما انطلقت تكتب فى جريدة والدها «المحروسة» ثم فى مجلة «الزهور» التى كان يصدرها عندئذ أنطون الجميل، وذلك قبل أن يمتد نشاطها إلى الكثير من الصحف والمجلات الأخرى مثل «المقتطف» وغيرها.

وبالرغم من نشأة مى الدينية وغزارة شعورها الدينى، فإنها كانت بالغة السماحة النفسية والتحرر الفكرى حتى رأيناها تتعقب وتدرس

آراء كبار أحرار الفكر فى ذلك العصر أمثال الدكتور شبلى شميل، ويعقوب صروف ، ثم أمين الريحانى الذى يحكى هو نفسه كيف تخطت فى أخريات حياتها كل العقبات والأراجيف فزارته فى وادى الفريكة فى وقت كان الرجال أنفسهم يخشون زيارته حتي لا يتهموا بالمروق، عندما كان الأب لويس شيخو يشن على أمين الريحانى وتفكيره العلمى المتحرر هجمات عنيفة. وهكذا استطاعت مى أن تجمع فى نفسها الخصبة كل التيارات: روحانية الشرق المتمسكة بالقيم الدينية السليمة وثقافة الغرب الرحبة الآفاق، وحرية العلم الحديث الذى يبحث فى التطور ونشأة الإنسان وذاتية الخلق، وتعدد الأنواع وفقا لميكانيكية الحياة ومثل هذه النفس الرحبة التى تألفت فى داخلها التيارات المتناقضة لم يكن بد من أن تشقى بالحياة نتيجة لغزارة الإحساس من جهة وعمق التأمل من جهة أخرى، وانطلاق الفكر من جهة ثالثة وكان حتما بعد ذلك أن تعيش مى حياتها كلها فى ظمأ إلى الحب وإلى النور وإلى المعرفة، وأن تظل مبلبلة النفس دائمة الاحتراق فخابت تجربتها العاطفية العنيفة فى حبها لجبران خليل جبران على بعد المزار واستحالة اللقاء، اللهم إلا أن يكون لقاء خاطفا غير مؤكد فى رحلة قامت بها إلى إيطاليا ثم فرنسا بعد سن الأربعين، حين يظن أنها التقت أثناءها بجبران فى باريس قبيل وفاته بسنين قليلة. ثم توفى والداها تباعا وخلت بها الحياة وأصيبت بمرض العزلة وظلت تعانى آلام الوحدة والمرض حتى اختتمت حياتها كما قلنا عند ظهر يوم الأحد ١٩ أكتوبر سنة ١٩٤١ وأما ما خلفت مى من آثار فمن المؤكد أن خيره ما كان تعبيرا عن خواطرها

وأحاسيسها، وانفعالها بما تشاهد أو تسمع وبالرغم من أن مى لم تكتب شعرا عربيا فإنها قد نشأت وظلت شاعرة طوال حياتها ونثرها خيره غارق فى روح شعرية نافذة رومانسية المعدن. وما من شك فى أن هناك تجاوبا واضحا بين ما كتبت من شعر منثور وما كتبه جبران خليل جبران.

وإذا كانت الآنسة مى قد عالجت كثيرا من الموضوعات الاجتماعية الخاصة بالمرأة وبالإنسانية كلها وألفت فى ذلك بعض الكتب مثل كتاب المساواة الذى ينم عن ثقافة واسعة وتأمل عميق، كما كتبت دراسات أدبية عن «باحثة البادية» وعن «عائشة التيمورية»، ومقالاتها عن «ألفريد دى موسيه» و«لامارتين» وغيرها فإن مما لا شك فيه أن كل هذا لا يعتبر خير نتاجها، وإنما خيره هو ما كتبت من خواطر وشعر منثور وأن معدنها النفسى الذى ظهر فى «أزاهير حلم» وفى «يوميات عائدة» قد ظل يلازمها طوال حياتها وإن زاد أفقها اتساعا، وزادت خبرتها فى الحياة غنى وهذه الخواطر والأحاسيس المرهفة هى التى نجدها فى كتبها الذاتية البالغة النفاذ والجمال مثل «ظلمات وأشعة» و «سوانح فتاة» و«الصحائف».

ولا ينبغى أن نختتم هذا المقال عن مى دون أن نشير إلى رسائلها العديدة للكثيرين من أدباء العصر وشعرائه ورسائلهم إليها وهذه المجموعة من الرسائل المتبادلة تعتبر ثروة أدبية لا شك فيها،وقد نشرت فى بيروت طائفة من هذه الرسائل الأدبية الهامة تحت عنوان «رسائل مى» . ومن المؤكد أن هناك رسائل عديدة أخرى أرسلت منها أو إليها لم تنشر حتى اليوم، ويا حبذا لو استطاع أحد

أدبائنا أن يبحث عنها وينشرها لأنها لا تقل أهمية عن كثير من مجموعات الرسائل التى نشرت فى كثير من الآداب العالمية.

لقد ضربت الآنسة مى مثلا رائعا للأديبة العربية المعاصرة، التى تستطيع أن تجمع بين مختلف الثقافات والعادات والتقاليد فى اتزان يكسب حياتها وإنتاجها الجمال والخلود.

مجلة الشهر، نوفمبر١٩٥٨

الأغانى والمغنية

ملك عبد العزيز

فى ٤ أكتوبر سنة ١٩٢١ هبط إلى مدينة طنطا وفى رحاب السيد البدوى فتى ريفى قدم إليها من إحدى قرى مديرية الشرقية ليلتحق بالقسم الداخلى بالمدرسة الثانوية حيث لم تكن هناك بعد مدرسة ثانوية بالزقازيق عاصمة مديريته. وكان الفتى الريفى فى الرابعة عشرة من عمره وقد صحبه إليها والده الرقيق القلب الذى أودعه المدرسة وأوصى به خيرا عم إدريس فراش الداخلية ثم استودعه الله وأدمعه مستهلات هو وابنه. وطابت للفتى الإقامة فى معهده وتفتحت ملكاته التى كانت تكبتها قسوة معلمى مدرسة الابتدائية بمنيا القمح. وكان الفتى يطرب أيما طرب لذلك النداء العذب الذى كان يناديه به كل صباح هو وزملاءه التلاميذ- عم إدريس وهو يجوب العنبر فى الصبا الباكر مغنيا:

من نال العلم وذاكره

حسنت دنياه وآخرته

فأدم للعلم مذاكرةً

فحياة العلم مذاكرته

ولم يكن فتانا يدرى أنه فى نفس الليلة التى هبط فيها إلى طنطا قد ولدت بنفس المدينة طفلة صغيرة ستشاركه حياته وتخوض معه

غمارها الصاخب،وكانت تلك الفتاة هى الشاعرة صاحبة هذه الأغانى ، وكان الفتى هو محمد مندور الذى طوف ما طوف فى بلاد العالم ثم هداه الله إلى هذه الفتاة عندما ابتدأ حياته العلمية كمدرس بكلية الآداب بعد بعثته الدراسية الطويلة بباريس، وكان الشعر المنبعث من شخصية ملك عبد العزيز ومن نبراتها الهامسة هو الذى هدى روحه الظمأى إلى الجمال.

ولم يكن الشعر هذه المرة من نوع شعر عم إدريس بل كان شعرا روحيا لعله كان الموحى لى باصطلاح « الشعر المهموس» الذى أشدت به فى مستهل حياتى الأدبية وطربت له ، وأخذت أبحث عنه فى شعر المهجريين الذين أرهقت الغربة مشاعرهم ورقق الحنين إلى الوطن نغماتهم ، والواقع أن الهمس لا تظهر نغماته ظهوراً كاملا إلا عند القراءة، ولذلك لا أحسبنى مبالغ إذا قلت إننى لم أحس بالهمس فى الشعر ينساب إلى روحى إلا عندما سمعت ملك عبد العزيز تنشد بعض أغانيها التى تفتحت عنها روحها الغضة كما يتفتح الزهر عن أريجه أو يتنفس الصبح عن عبيره، فى مثل قولها عن نور القمر:

هو نور.. شاعت الأحلام فيه.. والنغم
ذاب فيه الوهم.. حتى .. كاد يبدو من حلم
هذه الأحلام تزهو.. أم تراها تحترق؟
هذه الأنغام تزكو.. أم تراها تختنق؟
إننى أبخل يا بدر بهاتيك المنى
أبقها لى!.. هى حسبى من نعيم أو هنا

وعندما تزوجت من ملك عبد العزيز فى ٢٨ مارس سنة ١٩٤١

وهى لا تزال طالبة بالسنة الثالثة بكلية الآداب كنت أشفق عليها من الجمع بين أعباء الدراسة وأعباء الحياة الزوجية ولكننى لم ألبث أن رأيتها تنهض بكل هذه الأعباء فى شجاعة راعتنى صلابتها رغم ما فى شعرها من رقة وحنان وعندما تقدمت لامتحان لايسانس كنا قد رزقنا توأمين ولكنها استطاعت مع ذلك بفضل روحها اللماحة أن تحصل على درجتها الجامعية بل وأن تجلى بين أقرانها كما كانت مجلية دائما فى كل مراحل دراستها ثم كان لنا فى حياتنا المشتركة من الأهوال والمغامرات فى ميادين السياسة والثقافة والحياة العملية ما يهز أقوى النفوس ،ومع ذلك فأشهد الله أنى ما أحسست منها يوما غير صلابة العزم واطمئنان الثقة وعمق الإيمان مما آزرنى فى أقسى المحن وأمدنى بذلك الفيض الروحى الذى جابهتها به، حتى انتصرنا معا فى معركة الحياة، وإن تكن ضراوة تلك المعركة وأعباء الأسرة التى تعول اليوم خمسة أبناء قد استنفدت من طاقت الشاعرة ملك ما صرفها- خلال سنين طويلة- عن مواصلة كتابة الشعر.

والشاعرة ملك عبد العزيز لا تقول الشعر عندما تريد، وإنما تقوله حينما تتهيأ له روحها الشعرية، فشعرها شعر طبع لا إرادة ، وكم من مرة تبدأ قصيدة تهيأت لها روحها، ثم تشغلها عن إتمامها بعض مشاغل الحياة، فلا تستطيع إتمام ما بدأت إلا إذا تهيأت لها من جديد نفس الحالة الشعرية. ولا أدل على ذلك من أن نرى معظم أغانيها تصور حالة من حالات الروح المنفعلة بمشاهد الطبيعة، ولقد تعاودها نفس الحالة إزاء نفس المشهد فينفجر وجدانها من جديد. وفى كل مرة تطربنا لأنها لا تفتعل الشعر ولا تقوله عن قصد وإرادة،

وإنما ينبجس من روحها كما تنبجس ينابيع الماء العذب، وسط مجالى الطبيعة. وكما ينساب الماء من النبع دائم الصفاء متجدد الخرير يتجدد الشعر فى روح هذه الشاعرة الأصيلة الصادقة، المخلصة لذاتها وها هى ثلاث قصائد فى هذا الديوان تتحدث عن انفعالات روحها أمام «نجمة الغروب»، ومع ذلك لا نمل الطرب بهذا الحديث ولا نحس فيه بترديد أو عود على بدء، بل كلها صور وانفعالات غضة نابضة بالحياة.

وملك عبد العزيز لا تتعمد اختيار وزن أو قالب معين لأية أغنية تكتبها،وإنما ينساب الشعر من روحها تلقائيا فى وزنه ونغمه وصوره فهو شعر الطبع، لا شعر القوالب والأوزان.

وخلال حياتنا الطويلة المشتركة لاحظت أن شعر الوجدان العاطفى لا تضنيها صياغته إذ ينبعث عن روحها فى يسر وصفاء وإنما كنت أحس بما تلقى من مشقة عندما نضع للقصيدة تصميما هندسيا يتضمن أجزاء من القصص على نحو ما فعلت فى مطولتها الرائعة عن شهيدنا الخالد «جواد حسنى» الذى انفعلت ببطولة استشهاده فأرقت ، ولم تسكن روحها إلا بعد أن تفجرت عن المقطوعة العاطفية الأولى من هذه القصيدة حيث تقول فى وصف القاعة التى سجن فيها بعد أن وقع أسيرا فى يد الأعداء وحيث خط طرفا من قصة بطولته بدمه على جدرانها، فقالت فى رؤية شعرية حادة،خيلت إليها أنها قد دخلت تلك القاعة:

دخلت يوما والظلام جاثم على البطاحْ
والبحر مكفهر الوجه قاتم النواح

دخلت قبوا فى رحاب الشط مظلم القرارْ
فى قا ع وهدة قصية
موحشة الجوارْ
وفى ظلام القبو شاهدت عيناى
على الجدار أحرفا من الوهجْ
الدمُّ فيها والحياة تختلجْ..
شممت ريحها كأنه البخور
فى قدس معبد يغص بالنذور..
خلعت نعلى.. وانحنيت فى خشوع
وكدت ألثم الجدار..
أغسل الحروف بالدموع
لكننى أبيت أن يمس قدسها بشر
أو أن يذيب الدمع من جلالها أثر.
ركعت والعينان فى غلائل الدموع
ومن خلال الدمع لاح لى فتى وديع.. إلخ..

ثم انتقلت فى نفس الليلة إلى المقطوعة الأخيرة من قصيدتها ابتداء من قولها:

رفعت عينى والدموع لم تزل ستار
إلى الحروف، فوق صفحة الجدار
رأيتها تخضر كالربيع..
أصبح الوهج
عصارة الحياة فى الحروف تختلج

وأورقت..
وأمدت الجذور فى الثرى
عميقة عميقة عتية العروق
فى أرض بورسعيد تنهل الدما
وتشرب الدموع من ترابها العريق.
إلى آخر القصيدة.

وملك عبد العزيز لا تقتصر على خلق الرؤية الشعرية بل تعيش فيها وتنفعل بها، وإذا بها تضطرم بحرارة إحساسها، كالنار يذكى بعضها بعضا ،وما عرفت فى حياتى إنسانا ينفعل بالرؤى والصور الشعرية كما تنفعل هذه الشاعرة التى قد تصبر على رؤية أعنف المشاهد ببصرها ولكنها لا تستطيع صبرا على المشاهد التى يثيرها التصوير الشعرى ، حتى ولو كان هذا التصوير صادرا عنها هى نفسها ، حتى لقد رأيتها تغرورق عيناها بالدموع، وهى تسمعنى هذه القصيدة العاتية.

وبعد أن فرغت الشاعرة من هذين الجزءين كانت قد أحست بأنها قد استنفدت طاقتها الشعرية ، وقدرتها على التصور والانفعال ، فتركت القصيدة عدة أيام إلى أن عادت فتهيأت لها الروح الشعرية التى استطاعت أن تكتب خلالهاالجزء الأوسط من القصيدة وهو الجزء الأكبر الذى قصت فيه أطرافا من بطولات شهيدنا الخالد. فخرجت القصيدة كلها فريدة فى جمالها وقوة تأثيرها وروعة تصويرها.وكانت ملك قد انفعلت بقصة هذا الشهيد منذ أن طالعتها ولكنها تركت الانفعال يترسب فى روحها ويعمق ويتفاعل، حتى

استحال إلى تلك الحالة الشعرية التى تفجرت نغمات أحسبها من أروع ما قرأت فى حياتى من شعر.

وملك عبد العزيز هامسة فى شخصها وفى نبرات صوتها وفى نغمات شعرها ومع ذلك ففى همسها قوة روح وجلال صوفى، لم أدرك قوة إيحائه وعمق نبراته مثلما أدركته وهى تنفث فى روحى الأمل عندما شاءت يوما إرادة الله أن أستلقى فى أحد مستشفيات لندن مشقوق الجمجمة بعد أن استأصل لى جراح بارع ورما أسفل المخ كاد يودى بحياتى، وإذا بى أجدها إلى جوارى تهمس فى أذنى همس الحياة همس الأمل. وملك عبد العزيز مرت بها كما يمر بجميع البشر حالات تمرد وثورة نفسية تفجر عنها الشعر ولكنه ظل مع ذلك مهموسا يوحى بالقوة، ولكنه لا يجعجع بها فى مثل قصيدتها «اعصفى يا رياح»:

اعصفى، اعصفى يا رياح!

هأنــــا وحـــدى هــــنا!

لن تنالى من ثباتى مغنماً

أنا أقوى منك يا ريح.. أنا..

إلخ..

وشعر ملك عبد العزيز من شعر الوجدان الصافى، وأغلب انفعالاته كانت كما قلت من مشاهد الطبيعة التى تجاوبت مع روحها، ومع ذلك فإنه وجدان أبعد ما يكون عن الأنانية أو الانطواء على الذات، فأنا أعرف الشاعرة شديدة الحساسية بأفراح الغير وأتراحهم، دائمة المشاركة فى قضايا الوطن والشعب، ولا أدل على

ذلك من مطولتها الرائعة عن شهيدنا الفدائى جواد حسنى، ولكنها شاعرة لا تسجل أحداثا ولا تعلق على أحداث ولا تستطيع ذلك لأنها وجدانية الطبع لا تستطيع أن تقرض الشعر إلا تصويرا لما تنفعل به روحها الصافية البالغة الحساسية.

وبعد، فقد سبق لملك عبد العزيز أن قدمت إلى الجمهور واحدا من أوائل كتبى بل لعله آثر كتبى إلى نفسى وهو كتاب «نماذج بشرية» بمقدمة ضافية حللت فيها منهج تفكيرى ومسارب إحساسى أصدق تحليل وأعمقه ، فهل ترانى رددت إليها شيئا من الجميل بهذا الحديث السريع، الذى اكتفيت فيه بمجرد تصوير طرف من أحاسيس الجمال والانفعال التى أثارتها ولاتزال تثيرها فى أعماق روحى أغانيها النافذة، على نحو أرجو أن يشاركنى فيه كل ذى نفس حساسة يطالع هذا الشعر ويطيل التأمل فيه؟

مقدمة ديوان: أغاني الصبا، للشاعرة ملك عبد العزيز

الأعمال الكاملة، مكتبة مدبولي ١٩٩٠

جولة مع جان جاك روسو

أصـدرت منذ بضع سنوات دار النشـر الفـرنسـيـة «كـوريا» فى باريس، بالاتفاق مع دار نشر إنجليزية وأخرى أمريكية، سلسلة من الكتب باسم «الصـفـحـات الخـالدة» ويـتـضـمن كل كـتـاب من هذه السلسلة مـخـتـارات من كـبـار الأدباء والمفكرين الفـرنسـيـين وغـيـر الفرنسيين مع شرح وتطبيق على تلك المختارات بقلم عدد من كبار الأساتذة والكتاب، فقام أندريه جيد مثلا باختيار الصفحات الخالدة وشرحـهـا من «مـونتنى» واخـتـار فـرانسـوا مـورياك من «باسكال» واخـتـار رومـان رولان من «روسـو» واخـتـار كـولفـاردى من «ديكارت» وإدوارد هريو من «ديدرو» وكـتب كل من هـؤلاء مـقـدمـة ضـافـيـة عن الأديب أو المفكر الذى اختار من مؤلفاته الصفحات الخالدة.

وقد اختـارت لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب عددا من كتب هذه السلسلة لترجمتـها إلى اللغة العربية وكلفت بذلك عددا من الجامعيين وكان نصيبى منها الصفحات الخالدة لجان جاك روسو، ولكننى لم أجد الكتاب بأى مكان فى القاهرة فاستقدمته من باريس ووصلنى منذ أيام فـفـرحت به وأخـذت أتصـفـحـه بل أخـذت أتجول مع جان جاك روسو فى ميادين شتى..

ولا أنكر أننى أخذت أشـاكس بينـى وبين نفسى الكثـير من الآراء الجميلة المجنحة التى يبديها روسو، والتى كنت فى صدر حياتى أيام

الدراسة أتمل بها وأخذت أتساءل عن سر هذه المشاكسة وهل هي وليدة الزمن واتساع التجارب أم هي وليدة تطور إنساني عام شملني مع غيري في التطور نحو التفكير العلمي الوضعي وإن كنت لم أستطع أن أقاوم سحر هذا العالم الأبدي الذي يستطيع دائما أن يهدهد العقل مهما بلغت صرامته وأن يطلق النفس في آفاق البرية الخالدة.

ومهما يكن رأيي الحالي أو رأى غيري في جان جاك روسو فإن أحدا لا يستطيع أن ينكر الثورة الفكرية الخطيرة التي أحدثها هذا العالم في تفكير الإنسانية كلها واللبنات الخالدة التي وضعها في سلم القيم البشرية ،وها هو الكاتب الكبير رومان رولان يستعمل المقدمة التي كتبها لمختاراته بقوله إن جان جاك روسو يعتبر من أروع الأمثلة على سطوة الروح في عصره فقد نفذ إلى مجتمع ذلك القرن والقرن الذي تلاه أي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحول وأحدث فيه ثورة ولم يخطئ العهد القديم الذي حطمه في أن يبغض ويعزو إليه هو وفولتير مسئولية كافة الانقلابات التي حدثت في القرن التاسع عشر وها هو الطفل الباريسي جفروشي إحدى شخصيات قصة البؤساء لفيكتور هيجو يتغني ساخرا عندما خر شهيدا في إحدى معارك الحرية بشوارع باريس قائلا»: «فولتير» هو المسئول روسو هو المسئول».

ولكن روسو قد لعب دورا أكبر من فولتير بكثير ففولتير كان نجما لامعا بين مجموعة عديدة متزاحمة هي مجموعة «دائرة المعارف».. وأما روسو فقد عاش وحيدا وكافح وحيدا بل لقد اصطدم في

معاركه بعداوة جماعة دائرة المعارف هذه التى فند آراءها الأخلاقية وتخطى آراءها الاجتماعية، ففولتير وأعوانه الكبار من أمثال «ديدرو» و«دى لامبير» و« هولنج»و «ملفتيوس» قد تقصوا الجانب السلمى من الروح الجديدة المتحمسة لتحطيم المجتمع القديم وآرائه السلفية ومساوئهِ وكانوا رواد التفكير النقدى الحر المتحرر الساخر.. وأما روسو فيمثل وحده الجانب البنائى فيؤكد الإيمان الجديد ويبشر بالنظام الجمهورى وإليه تنتسب الثورة الفرنسية الكبرى وقد بلغ أوج المجد فى حكم «بروسبير» الذى قرر نقل رفاته إلى «البانتيون» مقبرة العظماء بباريس .

والصفحات الخالدة التى اختارها رومان رولان من مؤلفات جان جاك رسو قد انتقاها من بين جميع مؤلفاته فيما عدا أول بحث كتبه روسو فى مستهل حياته وهو بحثه عن تقدم العلوم والفنون فقد أهمله رولان بحق ،وذلك لأن روسو عندما كتبه كان لا يزال يافعا لم يستحصد قلمه ولا اكتملت مداركه فجاء بحثه أشبه بتمرينات الطلبة وفيه يشط شططا بعيدا إذ يهاجم فى عنف العلوم والفنون ويرجع إليها سبب شقاء البشر ويعتبر إخراج الطباعة كارثة ويود أن لو حطمت المطابع وأحرقت المكتبات ،وذلك لأنه كان لا يزال يافعا يحلم ويرى فى العودة إلى الطبيعة والحياة الطبيعية البسيطة خلاص الإنسانية وسعادتها.

ويعتقد أن فى استطاعة الإنسان أن يستمد كل معرفة ضرورية من ذاته لا من غيره ولا يريد من المعرفة إلا ما يعتقده مفيدا ولازما لسعادته.

وأما مؤلفاته الأخرى كلها فقد تخير منها «رومان رولان» صفحات مشرقة تتركز فيها آراء جان جاك روسو الأساسية مثل رأيه فى أسباب عدم المساواة بين البشر وهو يعنى طبعا عدم المساواة الناشيء من الحياة فى مجتمع لا يعدل بين أفراده ثم رأيه فى العقد الاجتماعى الضمنى الذى يفترض أن الأفراد قد اتفقوا فيما بينهم ضمنيا على أن يعيشوا فى مجتمع لمصلحتهم المشتركة مقابل تنازل كل منهم عن القدر من الحرية الذى تقتضيه الحياة الاجتماعية بحيث لا يحق للحاكم أو المحكوم تجاوز هذا القدر وإلا اعتبر العقد مفسوخا. ثم رأيه فى المسرح وهو الرأى الذى كتبه فى بحث نشره بمناسبة تقرير بلدية «جنيف» مسقط رأسه إنشاء دار للمسرح في تلك المدينة فهال جان جاك روسو البروتستانتى المتزمت هذا القرار وكتب هذا البحث ليثبت فيه أن المسرح أبعد ما يكون عن أن يعتبر وسيلة تهذيب وتثقيف مؤكدا أن رواده لا يقصدون إليه إلا للتسلية أو العبث.. وضرب لذلك الأمثال ببعض كوميديات موليير وبخاصة كوميديا «كاره البشر» الذى يسخر فيها من بطلها لتزمته الأخلاقى المسرف.

ولما كان جان جاك روسو قد أولع منذ صباه بمهنة التدريس واعتقد أن القيام على تكوين الشبان هو أنبل عمل فقد ظل سنين طويلة يفكر فى أساليب التربية حتى نضجت أفكاره ودونها فى موسوعة باسم «إميل».. وهو التلميذ الخيالى الذى أراد أن يربيه تربية إنسانية سليمة حيث يقول : «إن البشر متساوون فى الحياة الطبيعية والصفة الإنسانية تراث مشترك بينهم ومن يربى فى نفسه

هذه الصفة الإنسانية تربية سليمة لا يمكن أن يسيء باستخدام الصفات الأخرى الطارئة، وليعد تلميذى لمهنة الحرب أو لمهنة الكهنوت أو المحاماة أو أى مهنة أخرى فلا أهمية لذلك فالطبيعة تدعوه إلى الحياة الإنسانية قبل أن يدفعه آباؤه إلى هذه المهنة أو تلك ، ومهنة الحياة هى التى أريد أن أعلمه إياها ودراستنا الحق هى الوضع الإنسانى فالحياة ليست فى أن نتنفس بل فى أن نعمل وأن نستخدم أعضاء جسمنا وحواسنا وملكاتنا وجميع أجزاء جسمنا التى تعطينا الإحساس بالوجود، والرجل الذى عاش طويلا ليس الرجل الذى سلخ الكثير من السنين بل الرجل الذى أحس بالحياة أكثر من غيره».

وفى هذا الكتاب خصص جان جاك روسو ما يقرب من الستين صفحة للحديث عن الإيمان الدينى على لسان قسيس من جبال «السافوآى» التى توحى بالعظمة والجلال، وهو حديث أنكر فيه على الفلاسفة وبخاصة فلاسفة «دائرة المعارف» حسن نيتهم فى الشك فى وجود الله وقال: «إن الشك المنظم المستمر العنيد لا يمكن إن يتفق مع حسن النية لأن جميع مظاهر الحياة والطبيعة تشهد بوجود مبدأ أول وهذا المبدأ هو الله».. ولكنه لم يتقيد فى إيمانه بتعاليم المسيحية مما أغضب الجميع فلا هو أرضى المسيحيين ولا هو أرضى المتشككين المفكرين ،حتى لقد قضت السلطات بإحراق كتابه دون أن تستطيع حرمان الإنسانية منه فهو لا يزال حيا ولا تزال عدة من آراء روسو فى التربية سليمة موحية وبخاصة توجيهه نحو الناحية الإنسانية وضرورة العناية بها فى تربية الشباب مهما كانت

المهنة التى يراد إعدادهم لها لأن أية مهنة لا يمكن أن تسلبهم الصفة الإنسانية وحاجتهم إلى أسلوب حياة.

وأخيرا كتب جان جاك روسو عن نفسه وما يثور فيها من خواطر وأحاسيس متناثرة غير مرتبطة بموضوع محدد كتابين أحدهما «الاعترافات» وثانيهما «حلام متجول متفرد» وقد اختار منهما «رولان» عدة صفحات خالدة تجنب فيها شطحاته والجوانب المسفة المخزية من اعترافاته.

هذا وقد ذكرتنى هذه الجولة السريعة فى صفحات روسو الخالدة بكتاب كنت قد قرأته وأنا لا أزال طالبا بجامعة القاهرة وتأثرت به كثيرا وأفدت كثيرا وهو كتاب المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل عن جان جاك روسو، وأظن أن هذا الكتاب قد كان أول ما كتب هيكل بعد عودته من الدراسة فى فرنسا وبذل فيه من الجهد ما جعله ذا قيمة باقية بحيث أرجو أن تقرر لجنة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب إعادة طبعه فى الألف كتاب، تحقيقا للفائدة الكبيرة المرجوة من تداوله بل وتكملة للصفحات الخالدة التى أرجو أن أفرغ من ترجمتها قريبا.

جريدة الجمهورية ١٩٥٩/٩/٢٩

ديموستين..
خطيب الحرية

اعتدت منذ ربع قرن أو يزيد أى منذ أن من الله على ببدء معرفتى بالثقافة اليونانية القديمة- اعتدت كلما اشتد بى الانفعال لنشوة أو ألم ، أن أعود إلى مطالعة صفحات من ذلك التراث الرائع، أجد فيها تقوية عزمى فى تحمل الألم بشجاعة أو تعميقا لإحساسى بالنشوة ، وتغذية ذلك الإحساس حتى يشارك فيه الوعى والإدراك ولا يقتصر على العاطفة والانفعال..

وخلال أعياد الجلاء انفعلت نفسى بنشوة حقيقية لهذا الحدث الوطنى المثمل، فوثب إلى ذاكرتى اسم ذلك الخطيب الأثينى الكبير الذى عانيت فى صدر الشباب مجهودا شاقا فى فهم خطبة من أروع خطبه إن لم تكن أروعها على الإطلاق، وهى تلك الخطبة المسماة بخطبة التاج.

وهى خطبة لا تمت إلى تيجان الملوك بأى صلة، ولا إلى خطب العرش بأية وشيجة ، وإنما هى خطبة ألقاها ديموستين الذى تكاد الإنسانية تجمع على أنه أعظم خطيب للحرية عرفه البشر. ألقاها أمام الشعب الأثينى فى سنة ٣٣٠ قبل الميلاد ليدافع عن سياسة الصلابة فى الدفاع عن الوطن وحريته، وهى سياسة وإن تكن قد انتهت بهزيمة فيليب المقدونى لأثينا وطن ديموستين فى معركة

كيرونية ، إلا أن الشعب الأثينى قد رأى مع ذلك أن يقدم لديموستين تاجا من ذهب اعترافا بفضله وتقديرا لجهوده وتأييدا للصلابة التى دعا إليها فى عدم مهادنة العدو، فتقدم أحد المواطنين إلى الجمعية الشعبية بمشروع قانون يقضى بمنحه هذا التاج، ولكن دعاة الهزيمة والتردد والمسالمة عارضوا هذا المشروع، وتزعم هذه المعارضة خطيب جهير هو «ايشين» الذى شن على ديموستين وسياسته حملة شعواء وحمله مسئولية الهزيمة بعناده ورفضه التفاهم أو الصلح مع المقدونيين، وعندئذ انبرى له ديموستين ليدافع عن سياسته بهذه الخطبة التى لا أظن أننى قرأت فى حياتى ما هو أجمل أو أقوى منها فى معانى العزة القومية وشجاعة الرجال، ورفض الاستسلام، وتفضيل الموت على العبودية، وكسب ديموستين قلوب المواطنين حتى أن خصمه لم يستطع أن يحصل على الحد الأدنى من الأصوات الذى ينجو به من الإدانة وهو الخمس، ولم تكتف الجمعية الشعبية برفض اعتراضات ايشين بل وأدانته بأن يدفع غرامة باهظة أو أن يرحل عن أرض الوطن ، فاضطر الرجل إلى أن ينفى نفسه من أثينا.

هذا هو ديموستين الذى كان زملائى الفرنسيون فى السربون يفتخرون بأن زعيمهم الوطنى الكبير كليمنصو الذى حقق لهم النصر على ألمانيا- يفتخرون بأنه قد تتلمذ عليه وغذى مواهبه الخطابية من نبعه الصافى حيت أصبح يسمى- بالنمر- لأنه كان فى خطبه الوطنية أشبه ما يكون بهذا الحيوان المفترس عندما يحس بهجوم عدو أو تربصه.

عدت إذن فى نشوة الجلاء إلى ديموستين لأعمق فى نفسى هذه النشوة التى أعتبرها نشوة العمر وحرصت فى هذه المناسبة الوطنية المنعشة على أن أشرك مواطنى الكرام فى الإلمام بطرف من حياة هذا الوطني العظيم فعدت أستذكر بعض أحداث حياته وتواريخها التى قد تكون السنون قد ذهبت ببعض معالمها، ولكننى فى الحق لم أدر هل من الأفضل أن أتحدث فقط عن الوقائع والتواريخ الثابتة المحققة فى تاريخ هذا الرجل العظيم أم أجارى الخيال الشعبى الجميل الذى نسج حول هذه الحياة عددا من الأقاصيص الشيقة المعبرة وبخاصة وأن هذه الأقاصيص قد اعتمدها وأثبتها أكبر مؤرخ لتاريخ عظماء اليونان والرومان، وهو المؤرخ بلوتارك الذى نهل منه أدباء وشعراء العالم أجمع منذ عصر النهضة الأوروبية حتى الآن.

فبلوتارك يحدثنا أن ديموستين الذى ولد فى أثينا سنة ٣٨٤ق. م من أب من الطبقة الوسطى يمتلك مصنعين أحدهما للأسلحة البيضاء والآخر للأثاث ويعمل فيهما خمسون عاملا- لم يلبث أن فقد أباه وهو فى السابعة من عمره، وكانت له أخت أصغر منه بسنتين ، وكان والده قد ترك وصية أقام فيها أوصياء على ولديه وثروته، ولكن الأوصياء خانوا الأمانة بعد أن تزوج أحدهم من أم ديموستين وتزوج الآخر من أخته ، وأخذ ثلاثتهم يبددون الثروة، وسكت ديموستين على مضض ولكنه لم يكد يصل إلى الثامنة عشرة وهى سن الرشد عند اليونان القدماء حتى تحرك الغيظ المكبوت فى نفسه وصمم على أن يسترد ثروة أبيه المسلوبة وأن يحصل من القضاء

على حكم يدين هؤلاء الأوصياء الذين خانوا الأمانة، وكان ديموستين من ذوى العزم الذين لا يعرفون اليأس ولا يقبلون الضيم، ولكن هذه النفس الكبيرة كانت تستقر فى جسم هزيل ضعيف، ومع ذلك فإن ديموستين لم يكن يعبأ بهذا الضعف أو ذاك الهزال، وإنما كان يحز فى نفسه أنه مصاب بلثغة طبيعية وبخفوت فى الصوت ولكن عزمه كان أقوى من كل هذا، ولذلك يزعم بلوتارك أنه قد عالج اللثغة بحصاة كان يضعها تحت لسانه حتى تدميه لكى تحوله عن تلك اللثغة إلى أن يستقيم لسانه ولا يعود فى حاجة إلى تلك الحصاة، كما يزعم أنه لكى يتغلب على خفوت صوته أخذ نفسه بأن يتدرب على إلقاء الخطب على شاطئ البحر الصاخب كى يعلو هذا الصوت على صخب الموج. وعندما أخذ ديموستين يعد نفسه فيما بعد للحياة السياسية والخطب الوطنية يقول بلوتارك إن خطيبنا العظيم قد أعد نفسه لهذه المهمة النبيلة بأن نسخ كتاب المؤرخ الكبير توسيديد عن حرب البليبونيزيا وهى الحرب التى قامت بين أثينا واسبرطة وكانت من أسباب تحطيم مجد أثينا نسخ هذا الكتاب الرائع بيده سبع مرات، وكان هذا أعظم إعداد لمهمته الوطنية إذ استطاع أن يكسب خطبه السياسية ذلك الطابع الوضعى العملى بفضل ارتكازه الدائم على الوقائع والأحداث وعلى أمجاد أثينا الخالدة.

وسواء أصحت هذه الأقاصيص أم كانت من نسيج خيال الشعب الذى ظل يمجد خطيب حريته خلال القرون، فإن ديموستين قد تولى بنفسه الدفاع فى قضايا الوصية وكسبها، وإن يكن لسوء الحظ لم يستطع أن يسترد من ثروة أبيه ما كان الأوصياء قد بددوه.

ومنذ ذلك التاريخ عرف ديموستين بحذقه لمسائل القانون الأثينى.
ولما كانت قواعد المحاكمات فى أثينا القديمة توجب على المختصمين أن يتولوا بأنفسهم الدفاع فى قضاياهم ولا تبيح توكيل المحامين فقد زاول ديموستين مهنة اللوجو جراف أى كتابة المرافعات للخصوم الذين يطلبونها ،وقد احتفظ لنا التاريخ بعدد كبير من هذه المرافعات المدنية التى كتبها خطيبنا الكبير فى صدر حياته.

وتدرج ديموستين فى مزاولة مهنته من كتابة المرافعات المدنية إلى كتابة المرافعات فى القضايا السياسية التى كانت تعرض على القضاء، وهى قضايا لم تكن فردية ولا موضوعية كلها بل كان منها أيضا بعض القضايا العامة التى تتعلق بدستورية أو عدم دستورية بعض القرارات الإدارية، أو مشروعات القوانين، بل والقوانين ذاتها، وقادته أمثال هذه المرافعات إلى الإحساس بمدى ما وصلت إليه الحالة السياسية والاجتماعية فى أثينا من تدهور وانحلال، وخطا خطوة أخرى، وأخذ يعمل فى السياسة أمام جمعية الشعب، وكان ذلك فى فترة نضوجه أى بعد أن جاوز الثلاثين من عمره، وقد حفظ لنا التاريخ من هذا الفترة أروع الخطب الوطنية التى عرفها التاريخ وهذه الخطب تنقسم إلى قسمين: القسم الأول يضم المجموعة المعروفة باسم الفيليبيات وهى مجموعة الخطب التى ألقاها فى حث الشعب الأثينى بل والإغريقى كله على مقاومة المقدونيين وملكهم فيليب حتى لا يغزو مدنهم الحرة ويستعبدها كما حدث بالفعل ، ثم خطبة التاج التى سبق الحديث عنها والتى يستعرض فيها سياسته كلها ويقارن بينها وبين السياسة الأخرى الضعيفة المتخاذلة.

والواقع أنه عندما نضج ديموستين وجد وطنه أثينا وقد ضعفت روحه المعنوية بعد هزيمته فى حرب البليبونيزيا، وأخذ يجنح إلى الدعة والاستمتاع الرخيص لملذات الحياة، حتى لنراه يسلم قياده للزعيم ايبولوس الذى خصص الجانب الأكبر من ميزانية المدينة لما سماه «صندوق الرفاهية» وهو صندوق كان ينفق منه بسخاء على متع الشعب ورفاهيته ولذاته العابرة، وذلك بدلا من أن يأخذ الشعب بروح الجد والتقشف فيخصص كما كان يفعل القادة أيام مجد أثينا الجانب الأكبر من موارد المدينة للجيش والبحرية حتى يظل وطنهم حرا وتظل قواتهم قادرة على حماية تلك الحرية ورد كل عدوان عن الوطن وبخاصة وأن السحب كانت قد أخذت تتجمع فى الشمال حيث ولى حكم مقدونيا ملك طموح قادر هو فيليب الذى أخذ يتطلع إلى توحيد بلاد اليونان كلها تحت سيطرته بل وأخذ يرسم الخطط لغزو آسيا أيضا وتكوين تلك الإمبراطورية الضخمة التى إذا كان اغتياله سنة ٣٣٦ ق. م قد حال دون تكوينها فإن ابنه الإسكندر الأكبر قد حقق هذا الحلم الذى غير معالم التاريخ، بل ومقدرات الحضارة الإنسانية كلها، وكان سببا فى اتصال ا لشرق بالغرب وتوحيد الثقافة الإنسانية وتطعيم بعضها ببعض.

لقد تعلم ديموستين من المؤرخ العميق توسيديد كيف يفهم وقائع التاريخ ويحللها ويقيم النتائج على المقدمات حتى استطاع أن يتنبأ بالمصير المحتوم وهو اصطدام أثينا مع فيليب المقدونى فصاح فى مواطنيه لكى يوقظهم إلى هذا الخطر الداهم وأبى لهم أن يغمضوا أعينهم عن الحقائق وأن يستكينوا إلى الراحة والرفاهية حتي

يدهمهم القضاء المحتوم فيجدوا أنفسهم بين أمرين ، إما أن يحصدهم الموت وإما أن يستسلموا منذ اللحظة الأولى متنكرين لماضيهم المجيد يوم هزموا جحافل الفرس الغزاة فى مراتون وسلامين ، ويقبلوا الذل والاستعباد.

ولقد لقى ديموستين مشقة كبيرة فى أن يفهم مواطنيه هذه الحقائق القاسية، وظل لزمن طويل يخشى ألا ينجح فى إيقاظهم من سبات الراحة ولكنه استطاع بفضل إخلاصه وقوة عزمه أن ينتصر فى النهاية على خصومه من دعاة الهزيمة والتردد والاسترخاء. وفى سنة ٣٤٦ انتقل بفضل تأييد الشعب من المعارضة إلى الحكم وفى هذه الفترة ألقى «الفيليبيات» التى استطاع بفضلها أن يوقظ قوى أثينا ضد عدوها استعداداً ليوم انتهاء الهدنة التى كان خصومه من الأثينيين قد سبق أن عقدوها مع فيليب بل وأخذ يجمع جميع الإغريق حول أثينا للدفاع عن المصلحة المشتركة ، فعقد حلفا مع طيبة رغم خلافاتها السابقة مع أثينا كما أقام علاقات مع مدن البليبونيزيا التى كان يتآمر معها فيليب باستمرار أو يحاول ذلك، وكل ذلك مع مواصلة حملاته النارية على الحزب المعارض الذى كانت تصرفاته تمهد الطريق لمشروعات ملك مقدونيا إما عن خيانة أو ضعف أو غباء.

وشاء الحظ العاثر أن تنهزم أثينا أمام فيليب فى معركة كيرونيه. ومع ذلك لم ييأس ديموستين وظلت روحه فى مستوى مجد أثينا، فأخذ يدعو إلى إقامة الأسوار والتحصينات حول المدينة وتبرع لها من ماله الخاص وعندئذ اقترح «اكتيزيفون» أن يمنح ديموستين

تقديرا لوطنيته ذلك التاج الذهبى الذى كان سببا فى قيام تلك القضية الشعبية التى أدلى فيها ديموستين بخطبة التاج وعرض فيها سياسته وقابل بينها وبين سياسة خصومه..

وعندما اغتيل فيليب فى سنة ٣٣٦ ق.م. انتعشت الروح المعنوية فى أثينا وزادها ديموستين بقوة إيمانه اشتعالا، ولكن ابنه الإسكندر الأكبر الذى كان لا يزال شابا صغيرا أظهر قوة ومهارة خاطفة فى إخضاعه لثورة سنة ٣٣٥، ومع ذلك ظل ديموستين يأمل وحاول أن يتصل بملك الفرس وظل يحتفظ بالأمل حتى بعد موت دارا.

ولكن انتصارات الإسكندر المتلاحقة وتكوين إمبراطوريته الضخمة نالت من روح المواطنين الأثينيين حتى استطاع خصوم ديموستين الصلب العنيد أن يكيدوا له وأن ينتصروا عليه ،حتى استطاعوا حمله على أن يلجأ إلى المنفى فى سنة ٣٢٤. ولكن الإسكندر لم يلبث أن مات بعد ذلك بعام واحد فانتعشت الروح المعنوية من جديد عند الأثينيين الذين استدعوا ديموستين من منفاه واستقبلوه استقبال القواد المنتصرين فى حفل شعبى رائع ولكن فيليب والإسكندر كانا قد أعدا قوادا قادرين حلوا محلهما وكانت بلا د اليونان من نصيب القائد أنتيبتروس الذى وإن يكن قد انهزم أول الأمر أمام الإغريق فى موقعة «لامبا» إلا أنه لم يلبث أن انتصر انتصارا ساحقا فى معركة «كرانو» وبهذه الهزيمة ضاع استقلال أثينا وانطفأت أكبر شعلة للثقافة الإنسانية.

واضطرت المدينة إلى أن تخضع لمطالب القائد المقدونى وأن تقبل تسليمه خطباء الحزب الوطنى وعلى رأسهم ديموستين ولكن خطيبنا العظيم استطاع أن ينجو إلى جزيرة كالوريا غير أن جنود

أنتيباتروس لاحقته فى هذه الجزيرة ودهمته وهو يصلى فى معبد بوزيدون إله البحر عند الأثينيين، وعندئذ آثر ديموستين أن ينتحر بمص السم الذى أعده فى مقبض خنجره على أن يسلم نفسه للعدو، وكان ذلك فى عام ٣٢٢ ق. م.

هذه هى الخطوط الأساسية فى حياة هذا الرجل العظيم الذى قيل إنه قد نسخ بيده سبع مرات كتاب مؤرخ كبير عن حقبة مجيدة مريرة فى تاريخ وطنه ليتخذ منها معينا يرفع بفيضه الروح المعنوية لمواطنيه معتمدا على وقائع ذلك التاريخ المجيد.

عندما هزم الأثينيون البواسل جحافل الفرس الغزاة فى ماراتون وسلامين، وذلك بدلا من أن يعتمد على المثل العليا والمشاعر السامية فحسب ، مما أكسب خطابته ذلك الطابع الوضعى العملى ،حتى قيل إن خطبه لم تكن مجرد أقوال بل كانت بمثابة أفعال، وكان لفظه أمضى من حد السيف.

ويكاد النقاد والمفكرون يجمعون على أن عظمة ديموستين إنما تأتيه من أنه قد جمع بين هبتين تبدو ان متعارضتين تنفى إحداهما الأخرى وهما شدة الانفعال والقدرة عليه ثم صلابة العزم وثبات الإرادة ،وذلك لما يلاحظ عادة من أن شدة الانفعال كثيرا ما تؤدى إلى تقلب الإرادة وعدم الثبات فى العزم حتى ليصح القول بأنه إذا منح الرجل هاتين الهبتين دون أن تنقض إحداهما الأخرى أصبح هذا الرجل خارقا للمألوف وبالتالى من عظماء الإنسانية. على نحو ما كان هذا الخطيب الكبير الذى جعل من الجهاد فى سبيل الوطن والذود عن حريته غاية فى ذاتها بصرف النظر عن النتائج.

مجلة الهدف– يوليو ١٩٥٦.

نهر الحياة
بركليس ومعانى الديمقراطية

اعتدت منذ أكثر من ربع قرن أن أعود إلى تراث اليونان القدماء أتلو منه بعض الصفحات كلما أحسست أن روحى قد أخذت يعلوها الصدأ وقد انتابنى هذا الشعور منذ أيام فعدت إلى قراءة خطبة ألقاها زعيم أثينا الخالد بركليس فى سنة ٤٣٠ قبل الميلاد، ومع ذلك لا تزال محتفظة بجمالها الخارق وقوة إيحائها التى لا تنفد.

لقد ألقى بركليس الخطبة الخالدة فى حفل أقامه الأثينيون فى تلك السنة للاحتفال بتشييع الشهداء الذين قتلوا فى السنة الأولى من تلك الحرب العاتية التى نشبت بين أثينا واسبرطة وظللت سبعة وعشرين عاما، تحطمت بعدها قوى المدينتين تحطيما مهد السبيل لغزو المقدونيين لبلاد اليونان واستيلاء فيليب المقدونى ثم ابنه الإسكندر الأكبر على تلك البلاد التى خلفت للإنسانية أروع تراث ثقافى عرفه البشر.

وكان اليونان القدماء يجلون موتاهم أروع إجلال ويضعون أجدادهم فى مكان التقديس حتى لنراهم يسمون الوطن فى لغتهم بكلمة «باتريس» ومعناها الاشتقاقى «أرض الآباء» لا مكان الإقامة كما يستفاد من اشتقاق لفظنا العربى «وطن».

وعندما طلب الأثينيون فى ذلك العام إلى زعيمهم بركليس أن

يقوم برثاء شهداء الوطن فى حفل تشييعهم لم ير وسيلة لهذا الرثاء خيرا من أن يحدث مواطنيه عن مجد ذلك الوطن الذى مات فى سبيله هؤلاء الشهداء ،ورأى بركليس أن من أعظم أمجاد وطنه أثينا أنها كانت المدينة التى اهتدت إلى النظام الديمقراطى السليم ونجحت فى تطبيقه حتى أصبحت الديمقراطية فلسفة حياتها.

الخير لأكبر عدد

وكان أول معنى من معانى الديمقراطية التى تحدث عنها بركليس قوله: «دستورنا لا يثبت له فى المقارنة دستور ،الكل ينقل عنا بينما نحن لا ننقل عن أحد لقد أسميناه ديمقراطية لأنه يضمن الخير لأكبر عدد لا لأقله ،نحن جميعا سواسية أمام القانون لا يتميز منا أحد بمجد إلا بمواهبه فالمواهب الشخصية لا الفوارق الاجتماعية هى التى تفتح عندنا أبواب المجد وما للفقر أو تواضع الأصل أن ينحى مواطنا عن خدمة وطنه» وما أظن سياسيا أو مفكرا قد استطاع أن يحدد أساس الديمقراطية الشعبية بأوضح ولا أجمل من هذا التعريف. فالديمقراطية الشعبية هى حقا التى تضمن الخير لأكبر عدد لا لأقله وهذا الخير لا تحققه تلك الديمقراطية عن طريق الصدقة على المواطنين ، بل بمجرد إتاحة الفرص لهم جميعا وعلى قدم المساواة بأن يعملوا فى وطنهم وأن يساهموا فى خدمته، والتفاوت بين المواطنين لا يجوز أن يقوم إلا على أساس المواهب الشخصية وفى هذا المبدأ السليم ما يمكن الدولة من الاستفادة من أهم ثروة يمكن أن تملكها وهى ثروة المواهب.

السلوك الديمقراطى

ثم يعرف بركليس السلوك الديمقراطى ويرسم حدوده بذلك

الاتزان الحكيم الذى تميز به أولئك الإغريق القدماء وجعلوا منه أساس كل الفضائل فيقول: «نحن أحرار فى حياتنا العامة ولهذا لا نتطلع فى خبث إلى أمور مواطنينا فى حياتهم الخاصة لا نلومهم إذا التمسوا المسرات ولا ننظر إليهم تلك النظرات التى تجرح إن لم تقتل وبالرغم من هذا التسامح العام نعرف كيف نحترم كل ما له مساس بمقومات حياتنا العامة فنخضع لذوى الأمر فينا ونقدس حرمة القوانين وبخاصة ما وضع منها لحماية الضعيف، بل وحرمة ما لم يرون من تلك المبادئ التى يجد من يخرج عليها فى استنكارنا العام لعمله أقوى عقاب له». وفى رأيى أن بركليس قد رسم فى هذه العبارات المركزة الحد الذى يجب أن يفصل بين الحرية والفوضى فلا تزمت ولا انحلال ولا خشوع ولا تمرد أحمق والحياة الاجتماعية السليمة لا تستقيم بسطوة القوانين فحسب بل لابد لاستقامتها من رأى عام واع ينزل العقاب عن طريق الاستنكار بكل من ينحرف عن أصول السلوك الفردى والاجتماعى السليم.

فلسفة الحياة

والديمقراطية ككل نظام سياسى لابد أن تتمخض عن فلسفة خاصة تقود الفرد فى حياته الخاصة وحياته الاجتماعية على السواء وقد ركز بركليس هذه الفلسفة فى بضع عبارات كأنها المشاعل التى لا تزال تشع خلال ما عبرته من قرون حتى انتهت إلينا وذلك حيث قال : «نحن نحذق الجمع بين الأناقة والبساطة بين ثقافة النفس ونشاط الإرادة. نحن نستخدم ثروتنا لا للمباهاة الباطلة بل كأداة للعمل، ليس من العار عندنا أن يعترف أحدنا بفقره وإنما العار الا يحاول الإفلات من هذا الفقر ولكم نرى من رجالنا من يخدم مصالحه

الخاصة والمصالح العامة أحدنا بفقره وإنما العار ألا يحاول الإفلات من هذا الفقر. ولكن نري من رجالنا من يخدم مصالحه الخاصة والمصالح العامة معا وكم منهم من يجيد فهم المسائل السياسية رغم عدم احترافه لها وذلك لأننا لا نعتبر من يتجنب السياسة رجلا حريصا على راحته بل كائنا لا فائدة فيه، نحن نعرف كيف تفهم مصالح الدولة ونكشف عنها بأنفسنا وعندنا أن القول لا يضر بالعمل، بل الضرر هو ألا نستنير بالمناقشة، وقبل البدء فى أى عمل ترانا نجمع بمهارة بين هدوء الروية وجسارة الإقدام وأما الغير فإقدامه حماقة وتفكيره شل لإرادته وأما عن عمل الخير ففى هذا أيضا نتميز عن بقية الشعوب فنحن لا نكسب الأصدقاء بقبول الخير منهم بل بمنحه إياهم لأننا نعلم أن صداقة المانح أثبت وذلك لحرصه على أن يحتفظ بجميل ما منح، وأما الممنوح إياه فحرصه أقل لأنه يعمل أن ما يقدم من خير للمانح إنما هو قضاء لدين لا فضل له فيه ونحن نمنح عن كرم خالص غير مفسدين منحة بمن أو أذى».

هذه هى فلسفة الحياة التى تمخضت عنها الديمقراطية الشعبية الناجحة فى أثينا القديمة على نحو ما عبر عنها ذلك الرجل العجيب بركليس الذى ازدهرت الثقافة الأثينية فى عصره ازدهارا لا أظن أن الثقافة قد ازدهرت مثله فى أى عصر آخر من تاريخ الإنسانية حتي ولو كان ذلك العصر هو عصر أغسطس فى روما أو أليصابات فى إنجلترا أو لويس الرابع عشر فى فرنسا، فالديمقراطية الأثينية لم تكن فوضى تشل فيها السفسطة السياسية إرادة العمل والقدرة على التنفيذ، وبالرغم من اهتمام جميع الأثينين بسياسة مدينتهم لم يسقهم ذلك إلى التناحر والتنافر والتضارب والانقسام وشل الحياة

العامة على نحو ما نشاهد اليوم فى ديمقراطية منهارة كالديمقراطية الفرنسية.

الأيديولجيا والحياة

ونحن نسوق هذا الحديث عن الديمقراطية بلسان بركليس- لا لمجرد التعريف أو لمحاولة بعث صفحة ناصعة فى تاريخ الإنسانية ،بل نسوقه لندلل على ما نؤمن به من أن كل شعب يريد أن يحصن حياته وأن يسمو بها- لابد له من أيديولوجية واضحة متميزة الحدود والمعالم تتغلغل فى ضميره حتي تصبح فلسفة حياة ومنبع سلوك فردى واجتماعى على السواء.

ونحن نعتقد مخلصين أن ثورتنا المجيدة قد سبقت بانتصاراتها الوطنية والاجتماعية كل بلورة فكرية ، وأنها قد وصلت إلى المرحلة التى يتحتم فيها على المثقفين أن يخططوا على ضوء انتصاراتها تلك الأيديولوجية الخاصة التى يجب أن توضع وتحدد حتى يمكن أن تتغلغل فى النفوس وأن تصل إلى الضمائر حتى تصبح فلسفة حياة ومنبع سلوك على النحو الذى انتهت إليه معانى الديمقراطية الشعبية فى أثينا القديمة فأكسبت المواطنين ذلك الحب العارم للوطن أرضه وسمائه ،حتى كان أولئك الأثينيون ومعهم جميع الإغريق يؤمنون بأنه إذا لم يدفن المواطن بأرض وطنه ظلت روحه حائرة حائمة تنزل الويل بكل من تلقى وبكل ما تلقى ،بل وأصبحت أهم عبادة لديهم عبادة الموتى الذين حنت عليهم أرض الآباء.

جريدة الشعب – ١٩٥٨

سبارتاكوس شهيد الحرية

استخدمت صناعة السينما الأمريكية إمكانياتها الضخمة فى السنوات الأخيرة لإخراج عدد من الأفلام التاريخية الرائعة مثل «الرداء» و «المصارعون» وأخيرا فيلم سبارتاكوس الذى لاقى ويلاقى نجاحا كبيرا فى القاهرة.

وفيلم سبارتاكوس يصور صراعا رهيبا من أجل الحرية، واسم سبارتاكوس من الأسماء التاريخية التى ترمز للحرية والقتال من أجلها والاستشهاد فى سبيلها حتى رأينا فى عصرنا الحاضر جماعات سياسية تتكون باسم سبارتاكوس للنضال من أجل قضايا التحرر على نحو ما حدث فى ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى وإن تكن جماعة سبارتاكوس الألمانية لم تصب من النجاح الجماهيرى والتأثير الشعبى مثل ما أصابت جماعة الفابين التى تكونت بإنجلترا أواخر القرن الماضى واشتقت اسمها من اسم المصلح الاجتماعى الرومانى القديم فابيوس.

وحركة سبارتاكوس التى يصورها هذا الفيلم حدثت فى روما القديمة بين عامى ٧٣ و٧١ قبل الميلاد وكان سبارتاكوس هذا قد عمل أول الأمر جنديا فى الجيش الرومانى. ولما كان من إحدى المقاطعات الإغريقية التى وقعت تحت سيطرة الرومان وهى ترافيا- فإنه لم يقتنع بالعمل فى جيش مغتصبى وطنه ولذلك هرب منه ولكنه

وقع فى يد أعدائه فأنزلوه إلى مرتبة العبيد وسخروه فى تلك اللعبة الدامية التى كان الرومانيون الأجلاف الغلاظ القلوب يهشون لها وهى عملية المسابقة أى مبارزة اثنين من الرقيق بالسيف حتى يقتل أحدهما الآخر فيطرب ويهلل الرومانيون الأفظاظ .ويصور لنا الفيلم هذه اللعبة المقيتة تصويرا رائعا مفزعا وبخاصة عندما يجمع بين المتبارزين قبل دخول الحلبة وكل منهما ينظر إلى وجه أخيه دون أن يعلم لماذا سيحاول بعد قليل قتله وهل يجوز أن يفرض عليه مثل هذا العمل الوحشى الدامى. واهتز ضمير سبارتاكوس من هذا الظلم وامتهان إنسانية البشر على هذا النحو واستطاع أن ينفخ روح الثورة فى إخوانه العبيد. ويقول المؤرخ بلوتاركوس إن العبيد لم ينضموا وحدهم إلى سبارتاكوس بل انضم إليه أيضا الآف من رعاة البقر ورعاة الأغنام، ولكن الفيلم الأمريكى لم يظهر هذه الحقيقة التاريخية وذلك لأن إظهارها كان كفيلا بأن يتجاوز الفيلم ما رسم له من هدف وهو تصوير ثورة الرقيق، وأمريكا وغير أمريكا قد أصبحوا يؤمنون جميعا بما فى الرق من بشاعة ،ولكنهم لم يؤمنوا بعد بأن من يسترقهم الفقر والذل الاجتماعى حكمهم حكم الرقيق بحيث لا يدهشنا أن نرى التاريخ يحدثنا عن انضمام رعاة البقر والأغنام فى روما القديمة إلى العبيد فى ثورتهم بقيادة سبارتاكوس.

ولو أن الفيلم جمع بين الطائفتين فى هذه الثورة لجمع بين هدفين :هدف الثورة ضد الرق الشخصى والثورة ضد الرق الاجتماعى، والظاهر أن هذا أكثر مما نستطيع أن نطلبه من فيلم أمريكى حتى ولو كانت الحقيقة التاريخية تمليه.

ومع ذلك فالفيلم فى وضعه الحاضر يعتبر من الأعمال الفنية المجيدة التى تصور الشجاعة والاستشهاد فى سبيل أعز ما يحرص عليه البشر وهو الحرية ،وقضية الحرية واحدة لا تتجزأ بحيث يعتبر الاستشهاد فى سبيل الحرية الشخصية رمزا لنبل كل كفاح فى سبيل الحرية العزيزة التى لا كرامة للإنسان بدونها سواء أكانت الحرية الشخصية أم الحرية السياسية أم الحرية الاجتماعية.

والظاهر أن إخواننا الأمريكيين الذين أعدوا موضوع هذا الفيلم وأخرجوه قد حرصوا على أن يجعلوه من الأفلام الهادفة المتفائلة بكل معاني هذه الاصطلاحات ومن أجل ذلك أضافوا إلى الوقائع التاريخية قصة عاطفية جميلة إذ جعلوا سبارتاكوس قائد الثورة يستجيب وهو فى غمار المعركة لحب فتاة من الرقيق هى الأخرى ويتزوجها ويكون له منها ولد والمعارك دائرة بين جيش الثوار الضخم والجيش الرومانى، وعندما ينتهى الأمر بانتصار الجيوش الرومانية على سبارتاكوس وأخذه أسيرا وصلبه على أبواب روما- نرى زوجته تخف إلى ساق الصليب وتتعلق بقدمى زوجها المصلوب وتقبلهما وهى تشير إلى ابنهما الطفل المنكمش إلى صدرها وتناجى زوجها الشهيد لكى ينظر إلى الطفل قبل أن يفارق الحياة وتبشره أن ابنهما سيكون حرا ،وهذا رمز جميل إلى أن الاستشهاد فى سبيل الحرية إذا كان الشهيد لم يستطع أن يجنى ثمار حياته المراقة- فإن ابنه من بعده سوف يجنى تلك الثمار .والتاريخ يحدثنا لسوء الحظ عن أجيال متعاقبة من الرقيق الذين استشهدوا فى سبيل الحرية دون أن يجنى خلفهم المباشر أو غير المباشر ثمار تلك التضحيات العزيزة،

فقد ظل الرق قائما فى العالم حتى منتصف القرن الماضى عندما استطاعت الإنسانية فى النهاية أن توقع اتفاقا دوليا لتحريمه، وإن كنا لا نزال نسمع حتى اليوم عن استمرار وجود الرقيق فى بعض البلاد المتأخرة فضلا عن أنواع جديدة من هذا الرق البالغ القدرة على التنكر فى شتى الثياب.

ونحن نحس فعلا أن الطريقة التى تحرر بها فى هذا الفيلم ابن سبارتاكوس من الرق طريقة مصطنعة غير مقنعة وتبدو شاذة فضلا عن أنها لا توحى بأى تحرر عام للأرقاء فالفيلم يقول إن تحرر الأم والطفل لم يتم لإعجاب الرومان مثلا بشجاعة سبارتاكوس وروعة استشهاده فى سبيل الحرية بل لاختلاف قادة الرومان فيما بينهم ورغبة أحدهم فى أن يستحوذ على الزوجة الجميلة وطفلها ليضمهما إلى الأرقاء الذين يعمر بهم قصره ،فى حين حرص منافسه فى الحكم على أن يحطم إرادته بمنح الحرية لتلك الأم المسكينة ولطفلها الرضيع لا رغبة فى تحريرهما ولكن لإغاظة منافسه ونفث بذرة يأس فى نفسه.

وما أنا بعد ذلك فى حاجة إلى أن أتحدث عما فى إخراج هذا الفيلم الكبير وتمثيله من مهارة وروعة فالإمكانيات الضخمة التى تتمتع بها صناعة السينما الأمريكية هى التى تمكن لها من حشد هذا العدد الضخم من الممثلين العالميين، وآلاف الأفراد الذين يكونون حشود الجيوش الضخمة فضلا عن الأجهزة الآلية القديرة ،ومن توفير المال اللازم للانتقال إلى المجال الطبيعى لتلك الأحداث التاريخية الضخمة فى إيطاليا نفسها بدلا من التصوير فى الاستديوهات.

برنارد شو.. من كبار المتمردين على الماركسية

لقد استطاع الدكتور على الراعى فى رسالته الجامعية عن مسرح برنارد شو أن يجلو بمنهج علمي دقيق الكثير من القضايا الفنية والفكرية التى اختلف نقاد العالم أجمع فى تحديد موقف برنارد شو منها ومن أهم تلك المواقف موقفه من الفسلفة الماركسية أى من الفلسفة الاشتراكية ذات الطابع العلمى المحدد.

ويخيل إلى أن مناقشة هذا الموقف من الممكن أن تعين على تعمق فهم وتحليل فلسفة اشتراكيتنا الخاصة ولذلك فضلت أن أقصر حديثى هنا على هذه القضية رغم العديد من القضايا الفكرية والفنية الهامة التى أثارها الدكتور الراعى فى رسالته التى ترجمها إلى اللغة العربية ونشرتها أخيرا المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

من كبار المتمردين

فبرنارد شو رغم شهرته العالمية الواسعة بأنه كاتب اشتراكى وأنه قد سخر المسرح لتجسيد العديد من المبادئ الاشتراكية يعتبر من كبار المتمردين على الاشتراكية العلمية التى وضع «كارل ماركس» مبادئها وأصبحت عقيدة صلبة.

بل إن برنارد شو لم يقبل الأساس الفلسفى العام للماركسية التى تؤمن بالجبرية الميكانيكية فى التطور وبالمثل لم يؤمن بالجبرية

الميكانيكية فى التطور التى نادى بها «دارون» فى عالم الأجناس، وكما آمن بما يسميه قوة الحياة فى التطور العضوى متأثرا بلامارك نراه يؤمن بأهمية الإرادة البشرية فى تطوير الحياة الاجتماعية للشعوب وأكبر الظن أن شو لم يخطئ فى هذه النظرة ،ذلك عندما نذكر أن الاشتراكية لم تتحقق فى أى بلد من بلاد العالم نتيجة لجبرية ميكانيكية للتطور على ما كان يظن كارل ماركس عندما زعم أن الاقتصاد الرأسمالى ستتابع عليه الأزمات الدورية نتيجة لاتساع الهوة بين القدرة علي الإنتاج الرأسمالى المتزايدة وتخلف القدرة علي الاستهلاك نتيجة لضعف القوة الشرائية عند الملايين المستغلة المبخوسة الحقوق فى نتاج العمل حتى يأتي يوم تتحكم فيه إحدى تلك الأزمات الدورية تحكما لا يمكن معه حلها إلا باللجوء تلقائيا وبطريقة جبرية ميكانيكية إلى الاشتراكية التى تقوم على العدل فى توزيع ثمرات الإنتاج لإعادة توزيع أدوات الإنتاج وبغيرها من الوسائل الاشتراكية المعروفة.

المجتهدون والكسالى

فبالرغم من أن الاقتصاد الرأسمالى قد مر منذ النصف الثانى من القرن الماضى حتى اليوم بأزمات دورية طاحنة كانت تحدث فى الغالب كل عشر سنوات وتسبب الكساد والبطالة ومزيدا من بؤس الملايين يوم كان الرأسماليون يفضلون إحراق الفائض من إنتاجهم أو إلقاءه فى البحر على تخفيض ثمنه إلا أن الاشتراكية لم تتحقق وتري النور على ظهر الأرض وواقع البشر إلا بعمل إرادى ثورى حاسم كما حدث فى روسيا سنة ١٩١٧ وكما حدث بعد ذلك فى

الكثير من بقاع العالم بما فيه بلادنا العربية، وذلك بعد أن انتشر الوعى الاجتماعي ببؤس الشعوب فحرك إرادتها إلى العمل وبذلك أثبت التاريخ نفسه صحة رأى برنارد شو فى معارضته الجبرية الميكانيكية فى التطور على نحو ما قال ماركس

على أنه إذا كان برنار دشو قد أصاب شاكلة الحق فى إيمانه بعمل الإرادة البشرية فى التطوير الاجتماعى للشعوب فإننا لا ندرى إلى أى حد أصاب فى تمرده على عدد آخر من المبادئ الماركسية.

فهو مثلا يرفض تقسيم المجتمع إلى بروليتاريا كادحة مكونة من العمال والفلاحين وبرجوازية مكونة من الإقطاعيين والرأسماليين، ويرى أن يقسم المجتمع إلى عاملين مجتهدين وكسالى، وهو لا يرفض أن يدخل فى زمرة الكسالى عددا من العمال والفلاحين ولقد يكون هذا صحيحا فى بعض من الأحيان ولكن مثل هذا التقسيم يفتقر إلى التحديد العلمى ويفتح الباب أمام ما لا يحصى من الألاعيب.

التعطل بالوراثة

وعلى أية حال فالاشتراكية العلمية نفسها لا تتنكر لحقوق أى عالم مجتهد وهى تراعى فى التوزيع اجتهاد المجتهد وكسل الكسول ما دامت فلسفتها كلها تقوم على احترام العمل سواء فى ذلك العمل الذهنى والعمل العضلى، كما تراعى تفاوت المستويات فى الكفاية المهنية، وكل ما تحاربه هو ما عبر عنه الرئيس عبد الناصر بحق بالتعطل بالوراثة من جهة والاستقلال الرأسمالى من جهة أخرى. ومن مصلحتها بالبداهة أن تشجع بالكسب المداى والكسب المعنوى

معا ذوى الكفاية الذين يجتهدون فى استثمار كفايتهم لمنفعتهم الخاصة ولمنفعة مجتمعهم على شرط عدم إهدار مصلحة المجتمع فى سبيل المصلحة الخاصة او استغلالهم غير المشروع - عدلا- لغيرهم من المواطنين.

ومن ناحية القيادة يرى برنارد شو أن تكون للعقول العبقرية لا للعاديين من المواطنين ،ولقد يكون فى ذلك ما يذكرنا بجمهورية أفلاطون المثالية التى كان يرى أن يتولى الحكم فيها الفلاسفة ولكن شو لم يحدد الطبقة الاجتماعية التى يمكن أن تظهر فيها تلك العقول العبقرية وبالبداهة يمكن أن تبرز تلك العقول من بين أية طبقة اجتماعية ما دمنا نعطى الجميع فرصة متكافئة فى التعليم والثقافة أى فى تنمية بذرة الموهبة التى يمكن أن توجد بين بعض أبناء كل الطبقات الاجتماعية على السواء، وإن يكن برنارد شو قد جنح بعد ذلك جنوحا يكاد يدنيه من النزعة الفاشستية فى آرائه الخاصة بتحسين النسل عن طريق الاختيار لكى يصل إلى ما يسميه «بالسوبرمان» أى الإنسان الممتاز متجاهلا كل ما تدعو إليه الاشتراكية من قيادة جماعية وعدم حصر تلك القيادة فى شخص واحد مهما بلغ امتيازه.

وبالرغم من أن شو قد دعا كعضو فى الجماعة الفابية إلى تحقيق الاشتراكية بمنهج تدريجى وبالطرق السلمية إلا أنه فيما يبدو لم يستطع أن يحقق انسجاما حقيقيا بين إيمانه بالإرادة الفعالة والطرق السلمية التدريجية، ولولا إحساسه بالعجز عن قيادة الجماهير وبخاصة بعد تخليه عن المظاهرة التى قادها يوم الأحد

الدامى سنة ١٩٠٥ لانقلب إلى ثائر شعبى يحقق الاشتراكية بالعمل المباشر بدلا من انتظار الروتين البرلمانى البطيء فى مجال الإصلاح الاجتماعى التدريجى الذى كان الفابيون يؤمنون به..

وهكذا يتضح لنا كيف أن شو إذا كان قد تمرد تمردا كاملا على الفلسفة الماركسية فى ميكانيكية التطور ونفس الفلسفة عند دارون وآمن بقوة الحياة وبإرادة الإنسان الفعالة فإنه قد تخبط بعد ذلك فى تمرده على عدد آخر من مبادئ الاشتراكية الماركسية العلمية، وإن يكن رغم تخبطه قد فتح عدة منافذ لتأمل الاشتراكية نظريا وتطبيقيا على نحو يمكن أن تستفيد منه كل نزعة اشتراكية.

فنحن قد نخالفه فى بعض نظراته ولكننا مع ذلك لا نستطيع إلا أن نتأثر بها فى تحديد وإيضاح المفاهيم الاشتراكية المختلفة وتجنب ما قد يعتورها من فساد أو انحراف عند التطبيق.

وهذه هى الفائدة الكبرى التى نستطيع أن نخرج بها من دراسة أفكار برنارد شو سواء فى كتاباته النظرية أو عند تجسيده لها فى أعمال درامية استطاعت أن تجمع بحق بين الفكر والفن وأن تجعل منهما كلا موحدا رغم ما يزعمه خصومه المحافظون والرأسماليون من أنه قد حول المسرح إلى منبر خطابة أو بوق دعاية للاشتراكية الفابية التى عمل شو للترويج لها فى صدر حياته فى الحدائق والمقاهى والنوادى بل وعلى قارعة الطريق.

برتراند راسل والمثل العليا السياسية

وجه راسل فى السنوات الأخيرة بمفرده ومع غيره من العلماء والمفكرين إلى ساسة العالم عدة رسائل ونداءات للتفاهم السلمى ونبذ سياسة التسليح والقوة وبخاصة القوة الذرية مما لفت أنظار العالم إلى فلسفته السياسية ومنابع تلك الفلسفة.

والمعروف عن راسل أنه أتى إلى الفلسفة من عالم الرياضيات وأنه أنفق جهده الفكرى الأكبر وبخاصة فى الفترة التى شغل فيها كرسى الفلسفة بجامعة كمبردج أى من سنة ١٩١٠ إلى سنة ١٩١٦ فى تأييد سلطة العقل والمنطق الرياضى وقدرتهما على الوصول إلى المعرفة الصحيحة ومهاجمة فلسفة هنرى برجسون من جهة ووليم جيمس الفيلسوف الأمريكى صاحب مذهب الذرائع أو البراجماتيزم من جهة أخرى، وذلك لعدم إيمانهما بالعقل وقدرته على الوصول إلى المعرفة الحقيقية.

ومثل هذه الفلسفة القائمة على العقل والمنطق لم يكن من الممكن أن تنتهى إلى يقين فى مجال الأبحاث الخاصة لملابسات الحياة كالسياسة والاجتماع والأخلاق. ولهذا حرص راسل على أن يفصل بين فلسفته وبين هذه الأبحاث ليربطها بما يسميه حياته كإنسان ومواطن محلى وعالمى.

النظام المثالى لراسل

وعند مراجعة مؤلفات راسل ذات الصبغة السياسية الاجتماعية وبخاصة كتابه « مثل عليا سياسية»، وهو الذى أرسى الأسس العامة لتفكيره السياسى، نرى أنه لم يحاول أن يبتدع مذهبا سياسيا جديدا أو أن يخطط لإيتيوبيا مثالية، بل ابتدأ تفكيره مما هو موجود فعلا فى بقاع العالم المختلفة وأعمل فيه ملكته النافذة بروح خيرة تحدوها رغبة شريفة فى إقامة خير النظم التى يمكن أن تضمن للفرد السعادة والازدهار وللأمم السلام والتعاون، وللعالم كله الهدوء والاطمئنان وباستطاعتنا عندما نقابل بين نقده للنظام الرأسمالى ونقده للنظام الاشتراكى أن نتبين النظام المثالى الذى يرى فيه تحقيقا لسعادة الفرد وازدهاره.

فهو يميز عند كل فرد بين مجموعتين من الدوافع: دوافع التملك ودوافع الإبداع ،وعنده أن دوافع التملك هى التى يتولد عنها عادة النزوع إلى العدوان واستعمال القوة بدفاع الأثرة لأن هذه الدوافع هى التى تسبب ذلك الصراع المرير بين الناس حول تملك الثروة لا باعتبارها وسيلة للحياة فحسب، بل وباعتبارها وسيلة للقوة والسيطرة

ولكبح هذه الدوافع الشريرة فى تملك الأرض مثلا يقول راسل: «إن على الدولة أن تتأكد من أن الأرض التى يشغلها المالك لا تزيد على الخدمة العامة التى يؤديها للمجتمع، وأن نصيبه من إنتاج الأرض لا يزيد عن جزائه على أعماله، ولكنه لما كانت الحكومات حكومات الملاك وأصحاب رؤوس الأموال فى النظام الرأسمالى فإنها تمكن الملاك بواسطة الضغط الاقتصادى من استغلال هذه القوة

ضد من لا يملك شيئا، وأما باقى الأعمال التى يرتكبها الفقير ضد الغنى فتعد غير مشروعة وهذا ليس من العدل فى شىء فنحن نحتاج فى عالم الدوافع التملكية وبالنسبة لاستعمال القوة المنبعثة من التملك إلى هيئة محايدة عامة هى الدولة لإقرار الحرية والعدالة».

الدوافع الإبداعية

وأما الدوافع الإبداعية فيرى أنها تختلف الاختلاف كله عن الدوافع التملكية، لأن ربح أحد الأفراد فيها ليس خسارة للآخرين فذلك الرجل الذى يكتشف اكتشافا علميا أو يقرض الشعر يزيد فى ثروة الآخرين كما يزيد من ثروة نفسه تماما وأى ثراء فى المعرفة أو الفن ربح لكل من يتأثر بهما لا لمنشئهما الأول فحسب وهؤلاء الذين يشعرون بأفراح الحياة هناءة وسلامة للآخرين ، كما أنهم سعداء هم أنفسهم.

فالقوة لا يمكن أن تبدع هذه الأشياء، ولكن يمكنها تحطيمها ومن المستحيل وضع أى قانون أو مبدأ لتوزيعها بالعدل مادام كل ربح ربحا للجميع ولهذه الأسباب يجب أن يتحرر الجانب الإبداعى فى كل فرد تحررا مطلقا من القيد العام كى يظل سليما قويا عظيما، كما أن وظيفة الدولة تجاه هذا الجانب من حياة الأفراد تنحصر فى العمل على إمدادهم بالفرص والمسارب اللازمة. وهذه الملاحظة الأخيرة الخاصة بواجب الدولة فى إمداد المواطنين ذوى الدوافع الإبداعية بالفرص والمسارب اللازمة تسلمنا إلى حقيقة أخرى كبيرة تشعر بفطنة راسل إليها وهى تلك الحقيقة التى ترى أن حرية كحرية الرأى مثلا لا يمكن أن تتحقق بمجرد رفع القيود فحسب وذلك لأن المقصود بحرية الرأى هو حرية إعلان الرأى ونشره وهى بذلك

تحتـاج إلى وسـائل للإعـلان والنشـر وبهـذا تندرج هذه الحـرية مع غيرها من الحريات التى تعرف بأنها إمكان تحقيق الغاية عمليا.

ولعل هذا النقد لمعنى الحـرية فى النظام الرأسـمالى يندرج تحت مـا يقـرره راسل من أن هذا النظام يعنـى بزيادة الإنتـاج أكثـر مما يعني بعدالة التوزيع وأن هذا التفاوت فى الاهتمام بهذين الجانبين من أهم العوامل التى تعمل على تقويض النظام الرأسمالى.

وأما النظام الاشتراكى فيرى راسل أن من عيوبه نقل الإشراف على الإنتـاج العام إلى الدولة أى إلى الموظفين، وراسل لا يثق كثيرا بالموظفين ويرى فـيهم طبـقـة عـاجزة عن الإحسـاس العمـيق بحـياة الناس ومشـاكلهـم وقلقـهم فضـلا عن أنهم طبقـة كسـولة ،وهو لا يثق بقـدرة ممثلـى الأمـة ونوابـهـا على رقـابة هؤلاء الموظفـين لأن هؤلاء الممثلين لا يلبث النفاق أن يفسـد نفوسـهم وأن يثلم إرادتهم فـضـلا عما يخشاه راسل من طغيان الأغلبية على مصالح الأقلية أو إهمالها لمصـالح محلية تخص إقليمـا مـعينا فى الدولة ولا تجد فى البرلمان أغلبية تدافع عنها، وإن كان راسل يرى فى انتشار اللامركزية ونظام المقاطعات علاجا لطغيان الأغلبية أو إهمالها لبعض المصالح المحلية.

ومع ذلك فـإننا نرى تفكيـر راسل النزيه ينتـهى به إلى التسليم بضرورة قيام الدولة واشرافـها على الإنتاج ولو بطريق غير مباشر لتحـقيق العـدالة فى التـوزيع. بل إنه ليرفض أن تحل النقابات محل الدولة فى هذا الإشراف، وذلك لأنه يرى أن بعض النقابات قد تكون أقوى من البعض الآخر وأقدر على تحقيق مطالبه.

وإذن فمن الجور أن نعتبر راسل متعصبا لهذا النظام أو ذاك

فهو ينتقد فى كل نظام ما يراه ضارا بالإنسان فى ذاته وباعتباره عضوا فى مجتمع.

والمثل الأعلى عند راسل هو نظام يحافظ على وحدة الفرد وشخصيته ويحمى دوافعه الإبداعية ويحد من دوافع التملك العدوانية بطبيعتها.

وكما يحرص راسل على وحدة الفرد وشخصيته نراه أيضا يحرص على وحدة الأمة واستقلالها.

وكما أنه يحبذ تقوية الدولة لضمان العدالة الاجتماعية فى توزيع ثمار الثروة القومية بين المواطنين وكبح عدوان بعضهم على بعض فهو يدعو أيضا إلى قيام حكومة عالمية مع الاحتفاظ بشخصية كل أمة ووحدتها واستقلالها وذلك على أمل أن تمنع الحكومة العالمية عدوان أمة على أخرى وتضمن انطلاق دوافع الإبداع والتخصص فى كل أمة ،وقد هدته نزاهة فكره أن يشترط شرطا جوهريا يجب أن يسبق قيام الحكومة العالمية وهو أن تصبح حدود الأمة هى حدود الدولة ، أى أن تستقل وتتوحد كل قومية متميزة ،وهو يرى أن تنفرد الحكومة العالمية بتملك جيوش واسطول تستخدمهم لتنفيذ القانون الدولى إلى أن تتعود الأمم المختلفة احترام هذا القانون وتنفيذه والامتناع عن الخروج عليه فلا يعود بعد ذلك محل لاحتفاظ الحكومة الدولية بهذا الجيش وهذا الأسطول وأما الأمم المختلفة فتكتفى بتملك ما يلزم لحياتها الداخلية من قوة بوليسية.

الحكومة العالمية

وبرتراند راسل لا يرى فى قيام الحكومة العالمية والإخلاص لها

أى تعارض مع مشاعر القومية ،وهو يدلل على ذلك بقوله إن الشعور بالوطنية لا ينقص من الشعور بحب الأسرة وكذلك الروح العالمى الإنسانى لا يجب أن يحرمنا من الشعور بالقومية وإن كان لا يسلم بروح التعصب العدوانى للقوميات.

وهو يسفه بعض الشعارات المتغطرسة مثل نشيد الإنجليز القائل «بريطانيا تحكم البحار» ونشيد الألمان القائل «ألمانيا فوق الجميع» وللتخلص من مثل هذه المعتقدات يقول راسل «إن دراسة الماضى القديم ودراسة الأجناس المتوحشة تدلنا على أن معتقدات القبائل والأمم كانت فى أغلبها زائفة بدرجات مختلفة ولذلك نستطيع أن نضع هذه الحكمة الرائعة «لا تثق بأى تقليد أو عادة عامة تسبب ضررا ما أو تقييدا من أى نوع حتى تتأكد تماما» ، وهو يرى أن الحب القومى سيتغير فلن تصبح الأشياء التى يشتهيها المرء لقومه هى الأشياء التى يمكن تحصيلها على حساب الآخرين، ولكنها ستكون الأشياء التى تعظم بها البلد وتسمو بالنسبة لتقدم العالم كله وتلك هى فنون السلام. وأما الأعمال التى يمليها الحقد فإنها ليست واجبات على الرغم من الآلام والتضحيات التى تتطلبها، والحياة والأمل للعالم لا يتحققان إلا بأعمال الحب وكل ذلك مع دعوة راسل إلى التسليم بشرعية الشعور القومى وتغذيته، وعدم التخلى عنه.

وأما عن كيفية تحقيق كل هذه المثل العليا فراسل لا يرى فى هذا الصدد ضرورة لثورات العنف ولكنه يرى ضرورة للثورة الفكرية المستمرة ،وهو يرى أن الإنسانية تستطيع بفضل هذه الثورة الفكرية المستمرة أن تقتطف ثمار الآمال حلوة شهية .

جريدة الشعب- يوليو١٩٥٨.

أفكار تولستوى الحية لستيفان زفايج

من الكتب الجيدة التى أصدرتها الدار القومية للطباعة والنشر فى سلسلة مذاهب وشخصيات كتاب « أفكار تولستوى الحية» للكاتب النمساوى الشهير ستيفان زفايج وقد ترجمه إلى العربية أحمد عصام الدين وراجعه عبد الحميد سرور.

والكتاب ليس فى الحقيقة من تأليف ستيفان زفايج فليس لزفايج فيه غير فصل واحد ، ولكنه عميق ممتع قدم فيه تولستوى المفكر إلى القراء وحلل المشاكل التى عانى منها تولستوى فى الثلاثين سنة الأخيرة من عمره، أى بعد أن بلغ الخمسين.

وقد أجمل زفايج هذه المشاكل الإنسانية الخالدة فى الأسئلة الستة الآتية:

١- لماذا أعيش.

٢- ما السبب فى وجودى ووجود غيرى.

٣- أى غرض من وجودى أو وجود غيرى.

٤- ما مدلول التقسيم الذى أحس به فى داخل نفسى من شر وخير وأى غرض هناك من هذا التقسيم.

٥- كيف يجب أن أعيش..

٦- ما الموت وكيف يمكن أن أنقذ نفسى..

وبالطبع لم يجد تولوستوى ولا وجد غيره من المفكرين حتى اليوم

الجواب النهائى الحاسم على كل من هذه الأسئلة.

كما أن زفايج لم يعالج فى هذا الفصل الافتتاحى آراء تولستوى فى الإجابة على كل من هذه الأسئلة العويصة وإنما اكتفى بالحديث عن أزمة الضمير الحادة التى انتابت تولستوى فى هذه الفترة الأخيرة من حياته.. دون أن يستطيع تبين أسبابها الواضحة.

بل إن زفايج يبدى دهشته من تلك الأزمة عندما يذكر أن تولستوى كان عندئذ فى أوج مجده وشهرته وسعادته العائلية وذلك بحكم أن مثل هذه الأسئلة لا تراود المثقفين عادة إلا عندما تقسو عليهم الحياة فيجنحون إلى التشاؤم الذى يبدأ عادة بمثل هذه الأسئلة العويصة..

ولكن هذه الدهشة لا تغير من واقع حياة تولستوى شيئا لأن هذه الأسئلة وضعها تولستوى لنفسه فعلا وأخذ ستيفان زفايج يبحث فى مؤلفاته عما يصلح جوابا لكل منها، واختار على هذا الأساس صفحات مشرقة من عدد من كتب تولستوى ونشرها فى هذا الكتاب بعد التقديم الذى أشرت إليه..

وعلى هذا الأساس نرى أن الكتاب عبارة عن صفحات مختارة من مؤلفات تولستوى بوساطة ستيفان زفايج الذي قدم لها وعرف بأزمة الضمير التي انتابت تولستوي وحلل تلك الأزمة وأوضح الحلول الأساسية التى اهتدى إليها تولستوى.. والمختارات التى اختارها زفايج تتحدث عن:

طريق تولستوى إلى نفسه الداخلية ونقده لعصره وفلسفة التاريخ عنده وفكره الأخلاقى فى قالب خيالى، أى كما صاغه فى صورة

قصص قصيرة مثل قصة العصا الكبيرة وثلاث قصص ذات مغزى وقصة آشر خادن ملك آشور القديم..

وكل هذه المختارات ترجع إلى فترة أزمة الضميرعند تولستوى وهى أزمة عادت به إلى المسيحية الأرثوذكسية وإلى الإنجيل بنوع خاص حيث قرأه قراءة جديدة وفسره لنفسه تفسيرا جديدا حاول أن يجد فيه الجواب على أسئلته الحائرة وأن يشخص أدواء عصره وأن يلتمس الطريق إلى داخل نفسه وأن يجد فيه فلسفة التاريخ الذى انتهى إلى الإيمان بأنه لا سبيل إلى تفسير أحداثه بمنطقنا البشرى ولا مفر من التسليم بإرادة تسير البشر بوعى أو بغير وعى منهم وهى إرادة القدر.

وبالرغم من أن نقطة الانطلاق عند تولستوى فى البحث عن حلول لأزمة الضمير التى انتابته قد كانت العقائد المسيحية وضرورة بعثها فى صورتها الأولى الناصعة إلا أنه قد انتهى إلى ضرورة بناء النظام الاجتماى من جديد على أساس عادل..

وقد استطاع ستيفان زفايج أن يستخلص هذه النتيجة بتحليل عميق لآراء تولستوى فى تلك الفترة وتطورها حيث قال:

«وإذا جعل تولستوى يضع نظرته إلى الإنجيل وضعا عمليا أخذ يحاول تخفيف هذا البؤس والشقاء أول الأمر عن طريق الهدايا والمعونات ثم عن طريق تنظيم الإحسان إلا أنه لم يلبث أن تبين أن العمل الفردى لا جدوى منه..وأن النقود وحدها لا يمكن أن تأتى بخير هنا فى تحويل حياة هؤلاء الناس التعسة وأن تغيرا حقيقيا لا يمكن أن يكون إلا عن طريق إعادة بناء النظام الاجتماعى الحاضر

من أساسه وفى صورة كلية.. ومن ثم نراه يكتب بحروف من نار على جدران الزمن الذى يعيش فيه ونراه يكتب هذه الكلمات:

«بين الفقراء والأغنياء يقوم دائما أبدا نوع من التربية الزائفة، وقبل أن يكون فى استطاعتنا أن نمد يد العون إلى الفقراء لابد أن نهدم هذا الجدار ونزيله .. ولقد ساقنى ما رأيته إلى النتيجة النهائية التى مؤداها أن ثروتنا هى السبب الحقيقى فى شقاء أمتنا- إن ثمة شيئا يعانى منه البناء الاجتماعى الحاضر..

كان هذا واضحا فى قرارة نفسه، ومنذ ذلك اليوم كان لتولسترى غرض واحد هو أن يعلم الناس ويحذرهم بأن عليهم أن يتجشموا مشقة العمل بعزيمة صادقة على تصحيح الأوضاع التى كانت سائدة وفى طليعتها أن الناس قد انتظمتهم طبقات تحجروا داخلها..

نعم كان العمل على إزالة فوارق الطبقات من شأن الناس وحدهم وليس له أن يتم عن غير طريق إرادتهم وسلامة نظر أخلاقى خالص».

وهكذا يتضح لنا كيف أن تولستوى قد وصل إلى تشخيص حقيقى لأسباب الشر والشقاء فى حياة مجتمعه بل وفى حياة جميع المجتمعات.

كما أنه كان قد اهتدى إلى الطريق السليم فى علاج هذا الشقاء والتخلص منه وهو إذابة الفوارق بين الطبقات ومنع الأغنياء من أن يسيئوا استخدام ثروتهم فى استغلال الغير وإشقائهم.

وهنا يمكن القول بأن تولستوى كان قد التقى مع التفكيرالاشتراكى فى تشخيص الداء والطب للعلاج، عند ابتدائه من

العقيدة المسيحية السمحة فى صورتها الأولى الناصعة.

ولكننا عندما ننتقل من التشخيص وطريق العلاج إلى الوسائل يبدأ الخلاف بين تولستوى والاشتراكية الثورية فتولستوى متأثرا للمسيحية العميقة لم يكن يؤمن بالعنف ولا يرضاه ،وعنه أخذ غاندى نفسه هذه العقيدة ، وقد رأى تولستوى الوسيلة فى إيقاظ ضمائر الأغنياء أملا فى مثالية محلقة حتى يحملهم على التنازل راضين عن ثرواتهم ليعودوا إلى الحياة البسيطة الشريفة العاملة.. وبالفعل بدأ تولستوى بنفسه فتنازل كما هو معلوم فى آخر حياته عن أملاكه للفلاحين وأخذ يعمل بيديه رغم علو سنه..

ولكن التجربة -كما هو معلوم- لم تنجح بل أدت إلى خلاف كبير بينه وبين أسرته من زوجة وأولاد اتهموه بالشطط وتدمير حياتهم مجاراة لأفكاره المثالية الصارخة حتى انتهى به الأمر إلى هجر أسرته وهو مريض على خطوات من الموت، الذى لقيه فعلا فى إحدى محطات السكة الحديدية الصغيرة ليلة ترك أسرته واستقل القطار لينأى عنها.

وفى القصص القصيرة التى اختارها ستيفان زفايج ما يوضح الخلاف العنيف الذى نشب بينه وبين أهله الذين اعتبروه ناصحاً غير حكيم.

تلك كانت صفحات من حياة الأديب والمفكر الإنسانى العظيم ليو تولستوى مؤلف «آنا كارنينا» و«الحرب والسلام»، وصاحب الضمير الإنسانى الحى.

مجلة الكاتب- يناير ١٩٦٣.

أتيللا جوزيف.. وجدان ثائر

طالعت فى هذا الأسبوع ديوان شعر لأحد عمالقة الشعر المجرى المعاصر، وهو أتيللا جوزيف الذى تآزر ستة وعشرون شاعرا فرنسيا معاصرا على نظم قصائد ديوانه بعد أن ترجم نثرا إلى اللغة الفرنسية ،وهؤلاء الشعراء الستة والعشرون - ومنهم جان كوكتو- ينتمون إلى مذاهب فكرية وفنية مختلفة ومع ذلك اجتمعوا على محبة هذا الشاعر المجرى والإعجاب بشعره الإنسانى النافذ فاجتمعوا له لكى يثروا به لغتهم الفرنسية.

والشاعر أتيللا جوزيف يعتبر ممن يمكن أن نسميهم شعراء البؤس الثائر، أولئك الذين لاحقتهم الحياة بشتى المحن فتألموا واشتكوا وتمردوا على القيم والمواضعات وثاروا على ظلم الحياة فاستجابت لهم نفوس البشر فى معظم بقاع العالم حتى رأينا أتيللا جوزيف لا يحظى بشعبية واسعة فى المجر وطنه الأصلى فحسب، بل وتمتد شهرته إلى معظم بلاد العالم فتنتقل أشعاره إلى لغاتها ويتداولها الناس، وكل ذلك بالرغم من أن أتيللا جوزيف لم تكد تمتد به الحياة ثلث قرن كتب فيه أشعاره الخالدة.

فقد ولد أتيللا جوزيف ببودابست فى ٢ أبريل سنة ١٩٠٥، وكان أبوه عاملا فى مصانع الصابون وقد ترك أسرته سريعا وسافر إلى الخارج فبقيت أم أتيللا وحيدة ومعها ثلاثة أطفال اضطرت أن تعمل

غسالة خلال عدة سنوات لكى تعولهم، وقضت عليها هذه المهنة الشاقة فماتت وهى لا تزال شابة، وعاش أتيللا لفترة من الزمن فى ملاجئ الأحداث.

وقد احتفظ أتيللا بذكريات مؤلمة مريرة عن أمه والمهنة الشاقة التى كانت تزاولها وصاغ تلك الذكريات فى عدة قصائد تحت عنوان «ماما» أو «أمى» ففى إحدى تلك القصائد يحدثنا عن ذكرى أمه التى تلاحقه وتستبد به فيروى كيف كانت تصعد إلى السطح حاملة سلة الغسيل الثقيلة وهي تئز معلقة فى ذراعها بينما أتيللا الطفل يبكى ويصرخ ويضرب الأرض بقدميه طالبا إليها أن تحمله هو بدلا من أن تحمل السلة:

طوال الأسبوع كله
جذبتنى فكرة واحدة
إننى أفكر بلا انقطاع فى أمى
خيالى يستحضرها وهى تصعد فى سرعة نحو السطح
والسلة الثقيلة معلقة فى ذراعها.

***

وأنا الفتى الصغير الغارق عندئذ فى البراءة
أصرخ فى أسفل، وأضرب الأرض بقدمى
فليحمل غيرها فوق أذرعهم هذا الحمل الكبير من الملابس المغسولة
وأنا الذى يجب أن تحمله إلى السطح

***

صعدت وصعدت ونشرت غسيلها
في غير ضجر ولا تلفت ، وفي صمت
والغسيل الناصع الذي يلمع ويجف يتطاير ويوشك أن يتناثر في الفضاء

***

لن أعود اليوم إلى البكاء فقد انصرم الزمن
إنني أراها الآن في عظمتها الكاملة
بشعرها الرمادي الذي يطفو في السماء وهي التي تنشر الزرقة في قباب الفضاء.

بهذه النغمات الساذجة المتواضعة يتحدث الشاعر في اعتزاز وألم عن أمه المسكينة التي شقيت في سبيله واضطرتها الحياة إلى أن تنصرف عنه أحيانا لكي تفرغ لعملها الشاق ،ومع ذلك إلى أي قداسة يسمو بها الشاعر عندما يخيل إليه أنها قد ارتفعت إلى السماء حيث يطفو شعرها الرمادي بين شعاب السحب وحيث تنشر طهارتها في السماء تلك الزرقة الصافية الجميلة.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى وسنوات التضخم المالي التي تبعتها عاش أتيللا من عدة حرف بسيطة كبيع أرغفة الخبز الصغيرة أو الجرائد أو الخدمة في سفن الدانوب، وكل ذلك مع مواصلة دراسته الثانوية وسط مشقات هائلة نستطيع أن نتسقط بعض أصدائها في مثل قوله من قصيدة «قلبي النقي»:

لا أب ولا أم.. لا إله ولا وطن
بلا مهد ولا كفن

ولا حبيبة ولا عناق

***

ثلاثة أيام بلا طعام..
طعام كثير.. أو أقل.. أو قليل
العشرون عاما هى كل ما أمتلك من قوة
والعشرون عاما معروضة للبيع

***

إذا لم يكن هناك هاو يشترى
فهناك الشيطان دائما!
....
سيأخذوننى ويشنقوننى
ثم يضعوننى فى أرض مقدسة
وسينمو عشب مشئوم من قلبى..
قلبى الصافى الجميل.

وواضح من هذه المقطوعة كيف يمكن أن يدفع الجوع قلبا جريئا إلى الآثام التى تودى بصاحبها.

وبعد أن انتهت دراسته الثانوية فى عام سنة ١٩٣٦ نجح فى أن يوفد إلى باريس حيث درس فى السربون لمدة عام واتصل بالأوساط الأدبية ، التقدمية، وتوثقت علاقته بالشاعر تريستان تزارا وغيره من الشعراء، وظل طوال حياته مأخوذا بالشعر الفرنسى الذى نقل الكثير منه إلى اللغة المجرية.

ولعلنا نستطيع فى سهولة أن نلمس فى شعره تأثير الشعراء

الفرنسيين الذين عاشرهم فى فرنسا فى تلك الفترة ومنهم الرمزى العميق مثل بول فاليرى ممثل مدرسة مالارميه، ومنهم جان كوكتو ممثل السيريالية، ومنهم أراجون ومالرو وغيرهما من الواقعيين، حتى لنحس فى شعر أتيلا بمزيج غنى من كل هذه الاتجاهات الفكرية والفنية ،ولعلنا نلمس كل هذه الاتجاهات فى إحدى مطولاته الرائعة وهى قصيدة «يقظة» التى يستهلها بقوله:

الفجر يفصل السماء عن الأرض
ولندائه العذب الحنون
تستجيب الهوام والأطفال
فتهب أسرابا فى الضياء
النسيم يغتسل من ضبابه
ويطفو فى توهج رقيق
فى الليل تحط الأوراق فوق الشجرة
وكأنها الفراشات

****

رأيت صورا فى حلمى
زرقاء وصفراء وحمراء
مختلطة بعضها ببعض
ظننت أن النظام قد اقتضى أن تكون كذلك
دون ذرات أو تراب ينزل بها الاضطراب
ولكن هذا الحلم لم يلبث أن تبدد فى نفسى
ففى هذا العالم قبضة النظام قبضة من حديد

أثناء النهار يبزغ قمر فى رأسى
وأثناء الليل تصبح روحى شمسا

***

أنا نحيل.. لا آكل أحيانا غير الخبز الجاف
عند هذه الكائنات الثرثارة أبحث عبثا عما هو أكثر ضمانا من النرد
حلقى يجهل طعم اللحم
القطة تفكر .. ولكن قلما يأخذ الإنسان
فأرا من الخارج أو فأرا من الداخل!

ففى هذه الفقرات الثلاثة التى يمكن أن تجتمع تحت ما سميناه بالوجدان الثائر نحس بنغمات رومانسية رقيقة فى وصف الفجر ومباهجه، كما نحس برموز عميقة فى ذلك الصراع العنيف بين الشاعر وحياته كما نحس بواقعية ثائرة متمردة على نظم الحياة التى تشبه لعبة النرد وتلعب فيها المصادفة البحتة دورا خطيرا.

وعند عودة أتيللا جوزيف إلى بلده حيث كان يسود حكم الأميرال هورتى القائم على النظام الأخلاقى رأى الشاعر نفسه ممنوعا من دخول الجامعة ، بل وقدم إلى القضاء لنشره قصائد اعتبرت خارجة على الدين.

ولقد شارك أتيللا جوزيف منذ وقت مبكر فى الحركة العمالية السرية والعمال يقرأون ويحبون شعره الثورى وبالرغم من اعتراف معظم زملائه بأصالة شاعريته بل وتوليه- فى فترة من الزمن- إدارة مجلة زيب زو، فإنه قد عاش حياة بائسة وقد كتب هو نفسه يقول أنه

لم يستطع قط أن يحصل على المائتى بنجو أى الثلاثين أو الأربعين جنيها التى كانت لازمة لحياته فى كل شهر.

وقد وصف تأثير هذه الحالة السيئة فى نفسه بقوله وكم تلقيت من ضربات القدر حتى أصبحت لا أستطيع المقاومة بالرغم مما اكتسبت من صلابة. وجفاه بعض رفاقه فى الكفاح أنفسهم وشعر بالوحدة، وخاب فى حب كبير وسيطر عليه خوف على المجر من الحكم الفاشستى، ووقع في أزمة عصيبة حادة ولم تكن الأولى من نوعها.

وله فى تجربة غرامه الفاشل عدة قصائد رائعة منها قصيدة «لقد أعدت إلى الطفولة» حيث يقول:

لقد أعدتنى ذلك الطفل، الذى شبت به عبثا
عذابات ثلاثين شتاء قاس
إننى لا أستطيع أن أمشى
أو أن أمكث هنا أو هناك
فقدماى تحملانى رغم أنفى نحوك

***

كالكلب الذى يسير حاملا جروه بين فكيه
أمسك بك وأود أن أهرب
خوفا من أن أختنق
فى كل لحظة تقبل
تصفعنى فيها تلك السنين التى رأيت فيها مصيرى يتحطم

***

أطعميني فأنا جائع، ودثريني فأنا مقرور
انظرى كم أنا مسكين.. اهتمى بأمرى
غيابك يخترقنى كأنه تيار هواء
سيطيعك الخوف.. مريه أن يولى
***
عندما نظرت إلى فقدت غضبى
عندما أنصت الى لم أستطع إلا أن أصمت
اعملى على الا أأظل هذا الرجل العنيد
وعلى أن أعرف كيف أعيش وأموت وحدى
***
لقد طردتنى أمى ونمت على العتبة
وأردت أن أختبئ داخل نفسى.. فيالها من حماقة
ليس تحتى غير الحجر ولا فوقى غير الفضاء
كم أود أن أنام.. إننى أدق هنا بابك
***
هل تعرفين اناسا الحجارة مثلي
ومع ذلك تتساقط الدموع أحيانا من أعينهم؟
انظرى.. إننى أحبك إلى الدرجة التى
حملتك أنت نفسك على ان تحبينى.. أنت أيضا.

وبعد إقامته عدة أشهر فى إحدى المصحات ظن أنه قد شفى وأنه سيستأنف حياة عادية ولكنه لم يلبث أن أحس بعد أيام قليلة بعقله يزايله ومما لا ريب فيه أن خوفه من هذا المرض الخطير الذى

أحس أنه يتـربص به هو الذى دفـعـه إلى أن يلقى بنفـسـه فى ٣ ديسـمـبر سنة ١٩٣٧ أمـام أحد قطارات البضـاعـة. وكـأنه قـد رثى شبابه فى فقرة من قصيدة «ربما اختفيت فجأة» حيث يقول:

يا شبابى.. كنت كالخضرة الممتدة

تلوح خالدا لا نهاية لك

والآن أنصت باكيا..

فأرى الأشجار عارية تقرقع فى الريح.

جريدة الشعب- ١٩٥٨/٥/٤

واشنطون الزنجى ومحو الأمية

فى يوم الخميس الفائت انعقدت الجمعية العمومية للجنة التأليف والترجمة والنشر لعامها السادس والأربعين، وهى لجنة تضم نخبة ممتازة من كبار المفكرين ورجال التربية فى بلادنا، ولذلك لا أذكر أننى تخلفت فى أى عام عن حضور هذه الجمعية العامة منذ أن اشتركت فى هذه اللجنة على أثر عودتى من البعثة فى عام ١٩٤٠ ،ففى الاجتماع بأعضائها متعة روحية لا شك فيها وفى تقاريرها السنوية ما يثير فى نفسى البهجة والاستبشار بما تنهض به هذه اللجنة الكبيرة فى صمت من نشر المؤلفات والترجمات الجيدة حتى لنراها تثرى لغتنا العربية بعشرات بل بمئات من أجود الكتب المؤلفة والمترجمة.

وفى انتظار اكتمال عدد أعضائها القانونى قص علينا المربى الكبير الأستاذ عبد الواحد خلاف الذى خلف المرحوم أحمد أمين فى رياسة اللجنة قصة مفيدة ممتعة أود أن أشرك معى فيها أكبر عدد من القراء.

قال سيادته مررت يوما إلى جوار سور الأزبكية فإذا ببصرى يقع على كتاب أنيق عنوانه بالإنجليزية «واشنطون» وسألت عن ثمنه فإذا به خمسة قروش ففرحت بالكتاب وبثمنه الرخيص ظانا أنه يتحدث عن الوطنى الكبير جورج واشنطون الذى خلص وطنه أمريكا من

الاستعمار الإنجليزى ولكننى لم أكد أصل إلى البيت وأشرع فى قراءة الكتاب حتى وجدته يتحدث عن واشنطن آخر هو واشنطن الزنجي، ومع ذلك فقد سررت بالخطأ الذى وقعت فيه وخرجت من مطالعة هذا الكتاب بفائدة جديدة فواشنطن الزنجى هذا أحد أبناء الزنوج الذين يسكنون فى إحدى الجمهوريات الجنوبية فى الولايات المتحدة الأمريكية وكان الزنجي الوحيد الذى استطاع أن يتم دراسته العليا بالجامعة فى هذه الجمهورية، ثم حدث أن جاءت الانتخابات العامة فى هذه الجمهورية ولما كان الزنوج فيها لهم حق الانتخاب وليس لهم حق ترشيح أنفسهم فقد اتفق زعماء الزنوج فيها مع مرشح البيض على أن يعطى الزنوج أصواتهم له مقابل تعهده بأن يحصل لهم على خمسة آلاف دولار يخصصونها لتعليم أبنائهم ولما كان هذا المبلغ زهيدا فقد وفى النائب الأبيض بوعده وحصل لهم من الحكومة على هذا المبلغ ،وتشاور الزنوج فى الأمر فقرروا أن يفتحوا به مدرسة لتعليم الزنوج ورأوا أن يبدأوا مشروعهم بالبحث عن ناظر لهذه المدرسة. فلم يجدوا طبعا خيرا من واشنطون هذا الذى كلفوه بإنشاء المدرسة وفعلا فكر واشنطون فى أن يبدأ أولا بجمع تلاميذ للمدرسة وجمع فعلا اثنى عشر تلميذا من أبناء الزنوج ولكنه بدلا من أن يبنى مدرسة اتفق مع قسيس القرية على أن يسمح له باستخدام حجرة فى الكنيسة للتدريس للتلاميذ الزنوج وتفانى واشنطون فى تعليم هؤلاء التلاميذ ومخالطتهم فى كافة ألعابهم ومطالعاتهم حتى توثقت عرى المحبة بينه وبينهم ، وكانت الأراضى الأمريكية لاتزال مغطاة بالأحراش البرية وكانت الحكومة تبيح لمن يشاء أن يمتلك أية

مساحة من الأرض يستطيع أن يخلصها مما بها من أحراش فاتفق واشنطون مع تلاميذه على أن يعملوا معا فى قطع الأحراش فى الأرض المجاورة للمدرسة واستطاعوا قطع تلك الأحراش من مائة فدان باعوا أحراشها لأصحاب المواقد ثم زرعوا الأرض فأتت ثمارها ،وبعد أن فرغ واشنطون من تعليم تلاميذه الاثنى عشر كلف كل واحد منهم بأن ينتقل إلى قرية من قرى الزنوج الموجودة فى الولاية وأن يقوم بنفس التجربة التى قام بها واشنطون نفسه ولم تمض بضع سنوات حتى كان فى كل قرية زنجية مدرسة لتعليم أبناء الزنوج وحول المدرسة مزرعة كبيرة تغذى المدرسة بالمال .وأما الأرض الأولى التى استصلحها واشنطون مع تلاميذه الاثنى عشر فقد قامت فيها جامعة تحمل حتى اليوم اسم واشنطون الزنجى وتقوم بتعليم الزنوج تعليما عاليا.

هذه هى قصة واشنطون الزنجى وتلك هى حياته التى لا تقل روعة وجمالا عن حياة الزعيم الوطنى واشنطون الذى حرر وطنه من الاستعمار الإنجليزى. فما أحسب تحرير البشر من الجهل بأقل نبلا من تحريرهم من الاستعمار.

جريدة الجمهورية– ٤ مارس ١٩٦٠.

المحتوى

تقـــديـــم .... د. طارق مندور 7
اعتـرافـات مـؤمن 11
أساتذتي.. السباعي وهاشم وطه حسين............ 19
أستاذ الجيل.. علم الجيل
معنى الحرية والإيمان بالتطور .... أحمد لطفي السيد 27
أربعـة أيام بيـن الريف والبـدو ! 35
أصـالة ابن خلدون 39
جمال الدين الأفغاني 45
المنفلوطي.. أديب تقـدمي ثائر 49
فلسفة المازني وحياته........................ 57
وادي الصدق أو غاية المعرفة !......... د. علي حافظ 63
اعترافات عبد الرحمن شكري 69
ذكرى الشاعر أبي شادي 75
الرائد سلامة موسى 77
سلامة موسى المفترى عليه 79

الفيلات الفاخرة وعشش الدقى فى صور من الماضى
رسلان البمبى 81
الإنسانية تفقد ركنا كبيراً... د. محمد صقر خفاجة 85
درينى خشبة وفجيعة الأدب فيه 89
توفيق الحكيم وأدبه 93
نسمات من الشعر.............. حسين عفيف 99
مى زيادة.. والنثر الشعرى 105
الأغانى والمغنية .... ملك عبد العزيز 117
جولة مع جان جاك روسو 125
ديموستين.. خطيب الحرية 131
نهر الحياة.. بركليس ومعانى الديمقراطية 141
سبارتاكوس شهيد الحرية 147
برنارد شو.. من كبار المتمردين على الماركسية 151
برتراند راسل والمثل العليا السياسية 157
أفكار تولستوى الحية لستيفان زفايج 163
أتيللا جوزيف.. وجدان ثائر 169
واشنطون الزنجى ومحو الأمية 179

من مؤلفات الدكتور محمد مندور

1. نماذج بشرية، دار المعرفة، 1943.
2. في الميزان الجديد، دار نهضة مصر، 1944.
3. النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر،1948.
4. في الأدب والنقد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1949.
5. الديمقراطية السياسية، كتاب المواطن، 1952.
6. الشعر المصري بعد شوقي، معهد الدراسات العربية العليا، 1955.
7. الأدب ومذاهبه، معهد الدراسات العربية العليا، 1956.
8. جولة في العالم الاشتراكي ، جماعة البعث الجديد، 1957.
9. مسرحيات عزيز أباظة ، معهد الدراسات العربية العليا، 1958.
10. الثقافة وأجهزتها ، دار المعارف، 1958.
11. قضايا جديدة في أدبنا الحديث، دار الآداب ، بيروت، 1958.
12. الكلاسيكية والأصول الفنية للدراما، دار نهضة مصر، 1958.
13. المسرح النثري، معهد الدراسات العربية العليا، 1959.
14. فن الشعر، المكتبة الثقافية،1960.
15. في المسرح المصري المعاصر ، نهضة مصر،1972.
16. في المسرح العالمي، نهضة مصر، 1974.
17. معارك أدبية ، نهضة مصر ، 1984.

الغلاف.. تصميم / فكري يونس

www.culturepalaces.com.eg
www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahlgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com.eg

الهيئة العامة لقصور الثقافة